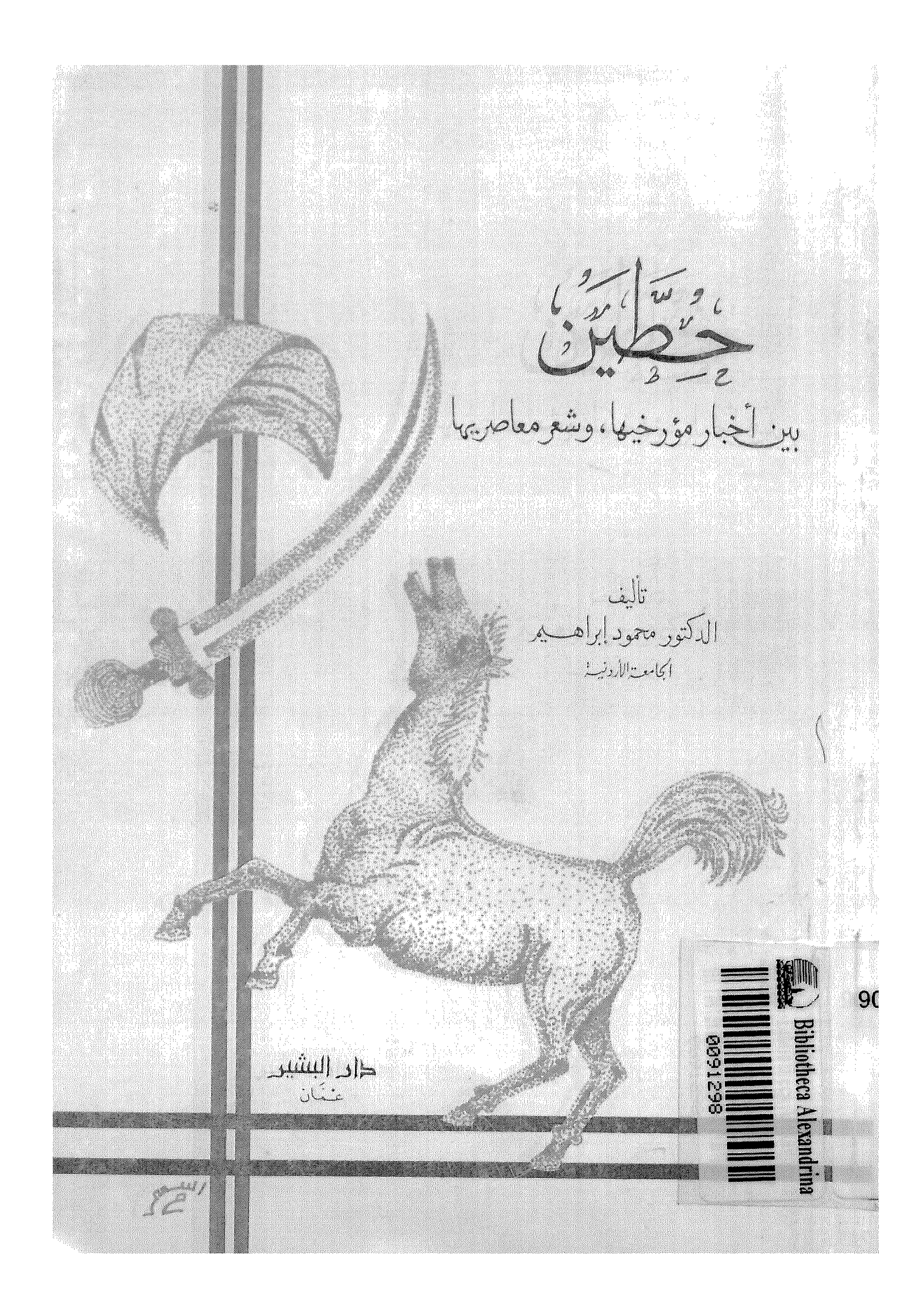


حطين

بين أخبار مؤرخيها، وشعر معاصريها

تأليف

الدكتور محمود إبراهيم

الجامعة الأردنية

دار البشير

عمان

حِطِّين

بين أخبار مؤرخيها، وشعر معاصريها

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

دار البشير
للنشر والتوزيع

هاتف : ٦٦٤٤٢١ - ٦٧٠٢٣٠ - ص. ب : ١٨٢٠٧٧ ـ العبدلي - ساحة العدو - مقابل البنك العربي - عمان - الاردن

حِطّين

بين أخبار مؤرخيها، وشعر معاصريها

تأليف

الدكتور محمود إبراهيم

الجامعة الأردنية

دار البشير

عمّان

بسم الله الرحمن الرحیم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بحلول شهر تموز (يوليه) من عام ١٩٨٧، يكون قد انقضى على وقوع معركة حطين ثمانمائة عام على وجه التحديد، إذ إن هذه المعركة وقعت في ٤ تموز من عام ١١٨٧م. وعلى الرغم من أنّ المعركة قد عُدّت في زمنها ثم في الأزمان اللاحقة من المعارك الحاسمة في التاريخ، إلّا أنّ الاهتمام بذكرى وقوعها هذا العام، فاق أيّ اهتمام سابق آخر، على الأقل في حدود السنين التي مرّت من عمر كاتب هذه السطور، منذ أن بدأ يعي الأحداث ويتفهّم مناسباتها وذكرياتها. ومن معالم هذا الاهتمام في عامنا هذا، أنه لم يقتصر على العالم العربي والاسلامي، بل تجاوزه إلى أماكن أخرى، منها دولة الكيان الصهيوني القائم على أرض فلسطين، وبعض دول أوروبية، منها بريطانيا، التي رتّبت للقاءٍ عن معركة حطين وقائد الجانب المسلم فيها. أمّا اهتمام العرب والمسلمين بهذه المعركة وإحياؤهم لذكراها، فإنه أمر مفهوم، ولا يخرج عما تفعله الأمم الأخرى في تخليد الأحداث الكبيرة في تاريخها. وما على المرء إلّا أن يطوّف بالعواصم الأوروبية مثلاً، لكي يرى كيف خلّدت شعوب أوروبا المعارك الحاسمة في تاريخها بشتّى الطرق، ومنها إقامة التماثيل وأقواس النصر والمعالم التذكاريّة، وكذلك برسوم فنانيها الكبار، والنقوش المحفورة على المعدن أو الحجر، والصور المجسّمة المصحوبة بالصوت والمؤثرات الصوتيّة، كما هي الحال مثلاً في متحف مدام توسو في لندن، حيث يمجَّد فيه على هذه الشاكلة انتصار القائد البحري الانجليزي نلسن

على أسطول نابليون في معركة الطرف الأغر Trafalgar . ولا يخفى على المـرء ما هو مقصود من ذلك كلّه، إذ إن كلّ أمّة تحرص على الاعتزاز بتاريخها وإنجازاتها الماضية، مثلما أنّها تهدف إلى اعتزاز أبنائها بأمجاد أسـلافهم، وإلى بث الثقـة في نفـوسهم، وتقـوية انتمائهم إلى أمتهم، وكـذلـك إلى شحن مشـاعـرهم وعـواطفهم من أجل أن يروا في هؤلاء الأسلاف قدوة لهم يسيرون على خطاهم، ويكملون مسيرتهم.

وإذا كنّا ندرك، كما أدرك الناس من قبل، أن هذه المعركة لم تضع نهاية للوجود الصليبي في المشرق الاسلامي، إذ إنّ هذا الوجود استمرّ أكثر من مئة سنة بعد وقوع تلك المعركة الحاسمة، فإننا ندرك كذلك، مثلما أدرك معاصروها واللاحقون بهم، أن تلك المعركة كان لها آثارها البعيـدة في الصراع الطويل الذي دام قرنين من الزمن بين سكان البلاد والغزاة الوافدين من أوروبا. ويكفي أن يكون من الآثار المباشرة لتلك المعركة، أن استعيدت مدينة القدس بعد أن لبثت في أيدي الفرنج زهاء تسعين عاماً.

وإذا كان إحياء حطين في زمننا هذا عن طريق مؤتمر يُعقَد، أو كتاب يؤَلَّف، أو بحث يُنشَرُ، أو مهرجان يُنَظَّم، قد جرى كما سبق أن ذكرنا في غير ما بقعة من بقاع العالم، فإن حوافز كلّ فئة شاركت في هذا الإحياء تختلف عن حوافـز الفئـة الأخـرى. فمعركة حطين بالنسبة إلى العرب والمسلمين جزء لا يتجزأ من تاريخهم، واهتمامهم بها من طبائع الأشياء، في حين أنّ عقـد مؤتمر في فلسطين المحتلّة، وتقديم دراسات فيه عن حطين، إنمـا قَصَـد منه من أعدّوا للمؤتمر وعقدوه، أن يتبيّنوا لأنفسهم عوامل النجاح والفشل التي ارتبطت بالوجود الأجنبي في هذه البقعة من العالم، وهي بقعة أقيم فيها مرة أخرى وجود أجنبي ينتمي إليه من دَعَوْا إلى هذا المؤتمـر، ولا سيّما أنّ المحتلين الجدد يولون اهْتماماً خاصّاً لأيّما دراسـات حول الحـروب الصليبيّة والـوجـود الفـرنجي في المشـرق

الإسلامي، ويعنون حتى بالتفصيلات المرتبطة بهذا الوجود، لأنهم يرون أن تجربتهم في فلسطين، إنْ هي إلّا صورة لتجربة الوجود الفرنجي فيها منذ قرون طويلة، حتى وإنْ كانوا يبرّرون وجودهم بحجج ودعاوى مختلفة عن حجج من سبقوهم من الفرنج ودعاواهم.

أمّا الاهتمام الأوروبي، والغربي بصورة عامة بحطين وأحداثها، فلا بدّ أن اختلطت به النزعة الأكاديميّة بعوامل أخرى، حتى وإنْ لم ننفِ كُليّةً العنصر الأكاديمي في هذه العوامل. فالأوروبيون، والغربيّون عامّة، ما فتئوا في السنوات الأخيرة يدرسون ما أصبح يسمّى بـ «الصحوة الإسلاميّة» دراسة مستوعبة شموليّة، تحتوي فيما تحتوي عليه، دراسة معالم معينة في التاريخ الإسلامي. وهم حريصون على أن يقفوا في دراساتهم على ما يرتبط بهذه الصحوة من أحداث الماضي ووقائع الحاضر وعوامله. ولذا فإنه لا عجب من أن تشمل هذه الدراسات مَعْلَماً بارزاً من معالم الحضارة الإسلاميّة الماضية، ولا سيّما أن هذه المعالم، على الرغم من بعدها الزمانيّ، ترتبط بصورة من الصور مع أوضاع قائمة ومثيرة في زمننا هذا.

وتُسْلِمُنا هذه العبارة الأخيرة إلى خصوصيّة تعنينا نحن أبناء هذا الجزء من العالم العربي والإسلامي، الجزء الذي جرت فيه الأحداث زمن حطين، وذلك لسببين اثنين: أولهما أننا أبناءُ هذا الجزء نفسه في المفهوم الجغرافي، لأن معركة حطين، فيما سبقها مباشرة من أحداث وتحركات، وخلال احتدامها، ثم فيما تمخضت عنه من نتائج، ذات صلة مباشرة بما هو الآن أرض فلسطين والأردن. وثانيهما لأننا نستذكر هذه المعركة، ونحن في هذا الجزء نفسه من المشرق العربيّ الإسلامي، نعاني الآن، كما عانى أسلافنا من قبل، من وجود أجنبي يحتلّ الأرض، ويهدّد الإنسان ويحلم بالتوسع الإقليمي، ويمثل خطراً مباشراً على وجودنا في هذه المنطقة، في المفهومين المادي الحسّي، والمعنوي الحضاريّ. ومن البديهيّ إذن أن يكون اهتمامنا بمعركة حطين لا يقل عن اهتمام الطرف

الآخـر: الـطرف المعـادي المقيم في بلادنـا، ولكن في إطـار هدفين مختلفين، بل متناقضين، كما لا يخفى على كل ذي بصيرة وبصر.

وإذا اقتضى الاهتمـام بحـطين الاهتمـام ببـطل حطين في الجانب الإسلاميّ، فذلك أمر مما اصطلح عليه الناس جميعاً في كلّ زمان ومكان، إذ إنَّ لكل معركة حاسمة في الماضي والحاضر بطلها، وهو الإنسان الذي سار بالمعركة سيراً ناجحاً تخطيطاً وتنفيذاً حتى الظفر، فارتبطت المعركة باسمه، مثلما ارتبط اسمه بالمعركة، وإن كان من الواجب أن يذكر هنا أن قائد حطين المسلم، لم يكن بالنسبة إلى مسلمي عصره مجرّد قائد حربيّ، بل كان كذلـك حاكمـاً لمسلمي البلاد الذين ابتُلوا ابتلاءً مباشراً بالغزو الفرنجيّ، مثلما أنه بصراعه مع الغزاة، كان مُدافعاً عن جميع المسلمين في ديار الإسلام الأخرى من ورائه. وما ارتبطت فلسطين ومدينة القدس باسم رجـل من رجال الإسلام منذ أن أصبحت هذه البلاد إسلاميّة زمن عمر بن الخطّاب، وإلى وقتنا هذا، كما ارتبطت باسم صلاح الدين، كما تدل على ذلـك أسمـاء المؤسسـات والمـدارس والشـوارع والمسميات العسكرية في هذه البقعة من عالم الإسلام.

وإذا كانت قصّة حطين وما تمخّضت عنه من نتائج، مما يفترض أن يعلمه جميع الناس في ديار العرب والمسلمين عامّة، وفي هذا الجزء من هذه الديار بصورة خاصّة، فإن هذه الدراسة الموجزة قد قصد بها أمور تتعدى المعرفة العامّة إلى عناصر معينة يرجى أن تكون لها سمة خاصّة. فقد حاولتُ في هذه الدراسة أن أبيّن من خلال الاطلاع على كتابات عربيّة وأجنبيـة، أسماء أمّهات الكتب العربية والأجنبية التي احتوت معلومات أصلية عن معركة حطين وما تلاها من أحداث، وهي تلك الكتب التي تقدم للقـارىء معلومـات مأخوذة من المصادر الأولى، والتي يعتمد الباحثون والدارسون في المعتاد عليها في كتاباتهم اللاحقة. ثم أَتْبعْتُ ذلك بمقارنة بين المعسكرين المتصارعين: معسكر المسلمين ومعسكر الفرنج، لكي

يستبين القــارىء ميـزان القـوى في المفهـوم العسكـري كمـا توحي به المعلومات الموردة عن كلّ من المعسكرين. وقدّمت بعد ذلك بياناً عن الأحداث والتحركات التي سبقت المعركة مباشرة، سواء أكانت من جانب المسلمين أم الفرنج، مع كلّ ما قد توحي به هذه الأحداث والتحركات من إرهـاصات ودلائل حول مسيرة المعركة ونتائجها، ودلفتُ بعد ذلك إلى سير المعركة وتطورات مراحلها وما كان لها من نتائج مباشرة.

وبعد ذلك انتقلت من أخبار التاريخ وروايات المؤرخين إلى عنصر آخـر مرتبط بالمعـركة ونتائجها، وهو دور الشعر المعاصر للمعركة في مواكبة الأحداث ورصدها، وفي رسم صورة بطل المعركة، ثم ما يكشف عنه هذا الشعر من مشاعر النشوة والدهشة لما تحقق من فوز في المعركة، وما اضطلع به شعراء العصر من استحثاثٍ لاستغلال النصر في حطين إلى أبعد قدر مستطاع، بل إلى أقصى تطلّع من تطلّعات المسلمين، وهو إزالة الوجود الأجنبي بصورة نهائية من المشرق الإسلامي.

وفي خاتمـة هذه الـدراسـة، حاولت أن أستخلص بعض فوائد من تجـربـة المـاضي، وذلك بتسليط الأضواء على زوايا معيّنة في أحداث الماضي، واستخلاص ما ينبغي استخلاصه من تلك الأحداث، مما يمكن إسقاطه على هموم الحاضر الذي نعيشه، والإفادة منه، وقد سلّطت هذه الأضـواء على زوايـا أربـع: هي علاقـات مسلمي ذلك العصر مع غير المسلمين، ولا سيّما من كانوا من مواطني هذا الجزء من العالم العربي الإسلامي، ثم معالم النظرة الاستعمارية الطائفية قديماً وحديثاً إلى هذه المنـطقـة التي نعيش فيها، والتي كانت ميدان الصراع زمن حطين، ثم دلالات الوجود السكاني الاستيطاني للفرنج في الأرض العربية الإسلاميّة إبّان الحروب الصليبيّة وما يمكن أن يستخلص منه من نتائج، وأخيراً ماهية الموقف الإسلامي من هذا الوجود زمن صلاح الدين، وما ينبغي أن يكون عليه موقفنا اليوم بالنسبة إلى نوع آخر منه فرض علينا منذ حوالي أربعين

سنة، وما زال يتحدّانا بصلف وغرور منذ اليوم الأول الذي أقيم فيه على الرغم منا.

وإذْ أُدرك أن دراسة موجزة كهذه لا يمكن أن تكون كشفاً لجديد، أو استيفاء لناقص، أو استيعاباً لمتفرّق، بالمعنى الكلّي للكشف والاستيفاء والاستيعاب، فإنني آمل مع ذلك ألّا تخلو من بعض هذه العناصر، ولو في إطار الربط وإقامة العلاقات بين الوقائع والأحداث، وإسقاط تجارب الماضي على مشكلات الحاضر. والله هو المستعان دائماً في كلّ عمل نقوم به، ومنه نستمد كلّ علم ومعرفة.

محمود إبراهيم

عمان في ٢/١٢/١٤٠٧هـ

الموافق ٢٨/٧/١٩٨٧م

مصادر عن الوجود الصليبي في بلاد الشام

أولاً: المصادر العربية:

من حسن حظ الدارس لفترة الوجود الصليبي في بلاد الشام، وهو وجود امتدّ زهاء قرنين من الزمن، أنّ أضواء ساطعة سلطت منذ البداية على هذا الوجود الطارىء، وسجلت أحداثه بكثير من الدقة والتفصيل، إمّا بحكم المعاصرة والقرب الجغرافي، أو لخطورة الأحداث التي ارتبطت بهذا الوجود، وما أثارته هذه الأحداث في نفوس المعاصرين لها، ثم اللاحقين بفترتها، من انفعالات عميقة، تتواءم مع ما تستثيره أحداث كهذه من المشاعر القوية.

وفي إيرادنا أهم المصادر العربيّة التي سجلت أحداث الحروب الصليبية، لا نتوخّى في هذه العجالة دراسة تحليليّة لكل مصدر منها، وتقويماً لهذا المصدر، إذ إن مثل تلك الدراسة وذلك التقويم يحتاجان إلى مؤلَّف خاصّ بهما، ويستدعيان تمحيص مؤرخ، لا دارس لغة وأدب. والواقع أن الحديث عن هذه المصادر، إنما قُصد به في الدرجة الأولى إعانة القارىء المدقق على أن يصل إلى هذه المصادر بأقل جهد مستطاع، مما يتطلبه في في المعتاد تلمس عنوان المصدر قبل البحث عنه والعثور عليه.

ولعل من حسن حظ الدارس لهذه الفترة كذلك، أن بعضاً من المصادر العربيّة التي سوف تُدرَج فيما هو لاحق من السطور، قد ألّفه أناس جمعوا إلى ميزة المعاصرة ميزة المشاركة في الأحداث والقرب من

الأشخاص الذين صنعوا تلك الأحداث في الفترة المذكورة، مما يضفي قيمة خاصة على كتاباتهم من حيث الدقّة والتوثيق. وإذ أورد فيما يلي مجموعة من المصادر العربيّة القديمة التي سجّل أصحابها بطرائق مختلفة أحداث الفترة موضوع هذه الدراسة وما يتعلق بها من أمور، فإنني لا أدّعي إطلاقاً أن القائمة التي تضم هذه المصادر قائمة مستقصية مستوعبة، لأن مصادر أخرى رأيت عدم إدراجها في القائمة لسبب أو لآخر، ومصادر لم تتح لي معرفتها أو الاطلاع عليها، تجعل هذه القائمة حُكْما ناقصة غير شاملة. إلا أن ما ضمته القائمة، هو من الكتب التي يحتاج إليها أيما دارس للوجود الصليبي في بلاد الشام، ولعلّها إن هي دُرِسَتْ أن تعطي فكرة واضحة عن ذلك الوجود، وما واكبه من أحداث وأوضاع. وقد رأيت مما يفيد أن تورَد أسماء مؤلفي المصادر في ترتيب تسلسلي بالنسبة إلى سنيّ وفياتهم، لكي يستبين القارىء مدى اتكاء اللاحق منهم على السابق فيما كتب، كلما وجد شكل من أشكال هذا الاتكاء، سواء صرّح به الآخذ المقتبس أم لم يصرّح:

١ ـ أبو يعلى حمزة **ابن القلانسي**، توفي سنة ٥٥٥هـ، وقد ألّف كتاب «**ذيل تاريخ دمشق**».

٢ ـ **أسامة بن منقذ**، توفي سنة ٥٨٤هـ، وألف كتاب «**الاعتبار**».

٣ ـ **القاضي الفاضل**، توفي سنة ٥٩٦هـ، وقد اختار موفق الدين ابن الديباجي المتوفّى سنة ٦١٥هـ مجموعة من رسائله، حققها الدكتور محمود نغش تحت عنوان: «**رسائل الحرب والسلام من ترسل القاضي الفاضل**»، كما اختار له محيي الدين ابن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢هـ مجموعة من رسائله أسماها «**الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم**»، وقام بتحقيقها أحمد أحمد بدوي.

٤ ـ **العماد الأصفهاني**، توفي سنة ٥٩٧هـ، وله كتاب «**الفيح القسي في الفتح القدسي**»، وكتاب «**البرق الشامي**» الذي اختصره الفتح البنداري

في كتاب «**سنا البرق الشامي**» وحققته الدكتورة فتحيّة النبراوي، وكتاب «**تاريخ دولة آل سلجوق**». وقد صدر مؤخراً الجزءان الثالث والخامس من «البرق الشامي» ونشرا محققين في عمان.

٥ - **ابن جبير**، محمد بن أحمد، توفي سنة ٦١٤هـ، وهو صاحب كتاب الرحلة الشهيرة التي سميت باسمه: «**رحلة ابن جبير**».

٦ - عز الدين **ابن الأثير**، توفي سنة ٦٣٠هـ، وله كتابان «**الكامل في التاريخ**» و«**الباهر في تاريخ الدولة الأتابكيّة**».

٧ - بهاء الدين **ابن شدّاد**، توفي سنة ٦٣٢هـ، وقد ألف كتاب «**النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيّة**» أو «**سيرة صلاح الدين**».

٨ - ضياء الدين **ابن الأثير** المتوفّى سنة ٦٣٧هـ، وهو صاحب الرسائل المعروفة باسمه: «**رسائل ابن الأثير**» وكتاب «**المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**».

٩ - **سبط ابن الجوزي** المتوفى سنة ٦٥٤هـ، وقد ألّف كتاب «**مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**».

١٠ - عمر بن أحمد **بن العديم**، المتوفى سنة ٦٦٠هـ، وكتابه بعنوان: «**زبدة الحلب من تاريخ حلب**».

١١ - **أبو شامة المقدسي** المتوفى سنة ٦٦٥هـ، صاحب كتاب «**الروضتين في أخبار الدولتين: النوريّة والصلاحيّة**» وكتاب «**الذيل على الروضتين**».

١٢ - عز الدين **ابن شداد**، المتوفى سنة ٦٨٤هـ، مؤلف كتاب «**الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**».

١٣ - محيي الدين **ابن عبد الظاهر**، المتوفى سنة ٦٩٢هـ، وقد جمع رسائل القاضي في كتاب بعنوان: «**الدر النظيم من ترسّل عبد الرحيم**» كما سبق أن بيّنا.

١٤ - جمال الدين **ابن واصل**، المتوفى سنة ٦٩٧هـ، وله كتاب «**مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب**».

وقدأ فاد الأوروبيون الذين كتبوا عن الحروب الصليبية من معظم المصادر العربية التي سبق إيرادها، إضافة إلى استفادتهم من مصادر عربية أخرى، مثل تاريخ ابن الأزرق، وتاريخ ابن أبي طيّ الشيعي وكتابه الموسوم بـ «مناجم الذهب»، ومن كتاب يحمل عنوان «البستان» لمؤلف مجهول، ومن تاريخ ابن خلدون الذي استفاد من تاريخ ابن الأثير، ومن كتاب ضائع لابن طوير، كتب زمن صلاح الدين.

ثانياً: المصادر الأجنبية:

استمدّ الغربيون في كتاباتهم عن الحروب الصليبية معلومات من مصادر أخرى غير المصادر العربية، وهذا أمر طبيعي تستوجبه عوامل كثيرة، مثل الاطلاع على وجهتي نظر الفريقين المتحاربين، والاستفادة من تنوع المصادر، وكذلك بسبب الصلات اللغوية التي تربط بين اللغات الأوروبية الحديثة واللغات التي استعملت في المصادر غير العربية. ومن الممكن تقسيم هذه المصادر حسب اللغات التي كتبت بها، ولا سيما ما ارتبط منها بأحداث القرن الثاني عشر الميلادي، وهو القرن الذي وقعت فيه معركة حطين، إلى ما يلي :-

أ- مصادر لاتينية ومنها : تاريخ فلتشر Fulcher of Chartres

وتاريخ ألبرت Albert of Aix

وتاريخ رادلف Radulph of Caen

وكتاب اكرهارد Ekkerhard of Aura

والكتاب الموسوم بـ: De-Bello Antiochene

من تأليف والتر Walter the Chancellor

وكتاب وليم الصوري بعنوان: Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum

والجدير بالذكر أن وليم الصوري هذا ولد في المشرق العربي عام

١١٣٠م، وربما تعلم العربيّة واليونانيّة وهو صغير، ثم ذهب إلى فرنسا لإتمام دراسته، وبعد عودته إلى فلسطين، أصبح رئيس الشمامسة في صور ومستشاراً للمحكمة الفرنجية خلال الفترة من ١١٧٠-١١٧٤م، وقد كان كذلك مدرّس بولدوين الرابع. وفي سنة ١١٧٥م، أصبح رئيس أساقفة صور، وكانت وفاته في مدينة روما سنة ١١٨٧م، وهي السنة التي وقعت فيها معركة حطين. وكان قد بدأ بكتابة تاريخه عام ١١٦٩م، وأنهى أول ثلاثة عشر جزءاً منه عام ١١٧٣م، ثم نقل كتبه معه إلى روما، ومات وهو يعمل في هذه الكتب[1].

ومن هذه المصادر اللاتينية كذلك الكتاب الذي يُعزى أحياناً إلى رالف قوجشال Ralph Coggeshall بعنوان Expugnatione Terrae Sanctae per Saladinum وهو كما يدل على ذلك عنوانه، يؤرخ لفتوح صلاح الدين الأيوبي. ومنها كتاب أودو Odo of Deuel بعنوان: De Ludovici VII Profectione in Orientum، وكتاب النورماني أورديريك فيتالس Orderic Vitalis ومجموعة رسائل متبادلة مع البابا، ولا سيما مراسلات لويس السابع وكونراد الثالث حول الحملة الصليبية الثانية. وقد استفاد المؤلفون الأوروبيون كذلك من مجموعة من رسائل باللاتينية موجودة في لندن بعنوان: Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi.

ب ـ مصادر يونانيّة :ـ

ومنها كتاب أنا كومنينا Anna Comnena بعنوان: Alexiad، وتاريخ جون سيناموس John Cinamus وكتاب نيسيتاس أكوميناتوس Nicetas Acomenatus.

جـ ـ مصادر سريانية :ـ

وأهم هذه المصادر كتاب في تاريخ العالم وضعه ميخائيل السوري Michael the Syrian، وقد أورد في كتابه أسماء المصادر التي

أخـذ عنهـا، وكلها مفقودة الآن، ونقل كذلك عن مصدر عربي غير معروف يبدو أنه كان معروفاً لابن الأثير.

د ـ مصادر أرمنيّة :ـ

المصدر الأرمني الرئيسي عن الحملة الصليبية الأولى هو الكتاب الذي ألفه ماثيو الرّهاوي Matthew of Edessa المتوفى سنة ١١٣٦م.

هـ ـ مصادر عبريّة :ـ

من أهم ما كتب باللغـة العبـرّية عن أحداث الحروب الصليبية الكتـاب الذي ألّفه بنيامين التوديلي Benjamin of Tudela وضمّنه الرحلة المنسوبة إليه.

مصادر سلافونيّة :ـ

من الكتب التي تعـرضت لأحداث الحروب الصليبية وكتبت باللغـة السـلافـونيّة القـديمة، كتاب دانييل الهيجوميني Daniel the Higumene ، وقد ضمّنه كذلك أخبار رحلته إلى فلسطين، إذ إنه زار فلسطين عام ١١٠٤م(٢).

وقد يُنظر إلى إيراد هذه المصادر باللغات الأجنبية القديمة التي لم تَعُدْ لغات حيّة متداولة في زمننا هذا، على أنه نافلة لا حاجة إليها، لأن قرّاء اليوم، باستثنـاء فئـة قليلة من المتخصصين والقـادرين على فهم تلك اللغات، إنما يستمدون معلوماتهم من مؤلفات كتب بلغات حديثة حيّة. وعلى الـرغم من صدق هذه النـظرة، إلا أن المنحى الأكاديمي يتطلب التوثيق ومعرفة مصادر المعلومات مهما كانت طبيعة هذه المعلومات، لأن في ذلـك ما يشيع في نفس الـدارس نوعـاً من الاطمئنـان إلى ما يورده المؤلف، شبيهاً إلى حد ما بذلك الاطمئنان الذي كان يستشعره أسلافنا وهم يتتبعون سلاسل الأسانيد التي توثّق خبراً أو رواية من الرويات.

ويرى كاتب هذه السطور أن عليه وهو يورد عناوين لمصادر أجنبية بلغات مختلفة، أن يوضح أن معرفته اللغوية لا تتجاوز اضافة إلى لغته العربية، اللغة الانجليزية، وقدرة على فهم المضمون العام للنص الفرنسي المكتوب، دونما القدرة على الكتابة بالفرنسية أو الحديث بها، وقدرة كذلك على فهم عام للنص اللاتيني، غير مقترنة بالقدرة على الكتابة أصلاً باللاتينية، وذلك لمرور سنوات طويلة على دراسته لهذه اللغة وآدابها.

وإذْ أذكر ذلك، فإنني أتوخى دفع الظن بأن لي اتصالاً شخصياً بلغات كل هذه المصادر القديمة التي أوردتها، إذ هي مصادر لمؤلفين من الانجليز قرأت لهم وأثبت ما أثبتوه هم عن مصادرهم ومصادر غيرهم من الكُتّاب الأوروبيين.

بين عسكرين

قد يكون من المفيد قبل أن ندلف إلى معركة حطين إعداداً وأحداثاً، أن نقدم صورة موجزة عن كل من جند المسلمين وجند الفرنج خلال فترة الحروب الصليبية، ولا سيما إبّان وجود صلاح الدين على المسرح السياسي والعسكري في مصر والشام، إذ إن معركة حطين التي ظفر فيها صلاح الدين بالفرنج، كانت على حد تعبير مؤلف غربي، تبين التاريخ العسكري في بلاد الشام والفن الحربي، أكثر من أية معركة أخرى[٣]. ولنبدأ بتقديم صورة عن جند الفرنج.

كان جند الفرنج يضم إضافة إلى المقاتلين الذين وفدوا من أقطار أوروبية مختلفة، مقاتلين من السكان المحليين الذين غالباً ما كانوا أبناء لأزواج مختلفي الديانة. وكان يطلق على هذا النوع من الجنود اسم التركبوليين كما هو واضح من ما ورد في كتاب «الفيح القُسّي في الفتح القدسي» للعماد الأصفهاني، وهو من الذين شهدوا معركة حطين، أو ممّن شهدوا آثارها، وقد وصف هذه الآثار وصف شاهد عيان[٤]، وكذلك من التسمية الغربية لهذا النوع من الجند Turcopolis[٥]. ولا شك في أن التسمية توحي بأصول تركية لهؤلاء الجنود، إذ إن فرنجة ذلك العصر، بل والكثيرين من الأوروبيين المتأخرين الذين كتبوا عن الحروب الصليبية، كانوا يسمون أعداءهم من المسلمين في بلاد الشام باسم الأتراك، لأن العنصر التركي كان هو العنصر الغالب في جيوش المسلمين في بلاد الشام، ابّان حكم السلاجقة الأتراك للبلاد عند قدوم أولى الحملات الصليبية إليها، ثم في

عهد الزنكيين، وهم من أصول تركية، ثم في عهد صلاح الدين، الكردي الأصل. فلا عجب إذن أن يطلق المصريون إبّان العهد الأخير من الحكم الفاطمي اسم «الغُزّ» أي الأتراك، على الجيوش التي قادها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين حين دخل هذان القائدان مصر ثلاثا في عهد نور الدين زنكي، إلى أن استقر الحكم فيها نهائياً لنور الدين بوصفه تابعاً للخلافة العباسية، بعد أن أزال صلاح الدين دولة الفاطميين عام ٥٦٧هـ، وبعد وفاة العاضد، آخر خليفة فاطمي، في السنة نفسها.

وكان من هؤلاء الجنود المحليين خيّالة، وبعضهم كانوا من الرماة، وكثيراً ما كانوا يُستخدمون للاستطلاع، وكانوا كذلك يقومون بدور مماثل لدور جند المسلمين الأتراك في الرماية من على ظهور الخيل[٦]. إلا أن القوة الضاربة الرئيسية في جيش الافرنج كانت من الفرسان، وكان الافرنج يعتمدون عليهم في معاركهم الحاسمة ويدخرونهم للمواقف الحرجة. ومن أجل ذلك كان هؤلاء الفرسان يحاطون لدى زحف الجيش الفرنجي في تشكيلات عسكرية من موقع إلى آخر، بالرَجّالة حملة السهام، من أجل حمايتهم من سهام جند المسلمين، إذ كان الجيش الزاحف كثيراً ما يتعرض لسهام خيالة المسلمين من أجل فتح ثغرة في صفوفه يندفعون من خلالها داخل هذه الصفوف. وكان الافرنج يحرصون كل الحرص على ألّا تفتح مثل هذه الثغرة في صفوفهم[٧]. وقد قدم لنا القاضي بهاء الدين ابن شداد وصفاً تفصيلياً واضحاً لتشكيلة الجيش الافرنجي الزاحف من عكا جنوباً في الطريق الساحلي، والرجالة محيطة بفرسانه، وجند صلاح الدين من الرماة يناوشون الجيش طيلة مسيرته، والفرسان فيه يتحملون السهام التي كانت تنغرز في دروعهم وأجسادهم، لكيلا يختل نظام الجيش الزاحف فيما إذا خرج الفرسان من حزام الرجالة الذين كانوا يحيطون بهم ويذبّون عنهم بسهامهم[٨]. وقد تعرض الجيش الافرنجي الزاحف لمثل هذه الهجمات بالسهام من خيّالة المسلمين وهو متجه إلى حطين قبل

الدخول في المعركة الفاصلة. ولما كان التحرز سمة من سمات مقاتلي الفرنج كما يستبين مما أورده بهاء الدين ابن شداد[٩]، فقد كان من عادتهم تجنب الدخول في معارك فاصلة، ما استطاعوا ذلك. وإذا اضطر فرسانهم إلى الهجوم، فقد كانوا لا يهجمون كتلة واحدة، بل في مجموعات تتراوح عادة ما بين خمس إلى ست، وكان عدد كل مجموعة يتراوح ما بين (١٠٠) إلى (١٥٠) فارساً. وكان من عادة الجيش الفرنجي حين يهاجم فرسانه في دفعات متتابعة، أن يكون هجومه على عدة محاور، لا على محور واحد فقط[١٠]

وكان حرص الفرنج على أن يتجنبوا ما أمكن الدخول في معارك حاسمة مع جيش كبير من المسلمين نابعاً من اعتقادهم بأن هذا الجيش سوف يتفرق ويعود أفراده إلى مواطنهم الأصلية، بعد انتهاء موسم الحملات[١١]، وهذا بالإضافة إلى خوفهم من سقوط معاقلهم وحصونهم في أيدي المسلمين، إنْ هم فقدوا القوة العسكريّة التي تذب عن هذه المواقع، فيما إذا هزمت هذه القوة في معركة فاصلة، ولم يبق من يدفع هجمات المسلمين عن مواقعهم. وقد أثبتت الأحداث التي جرت بعد معركة حطين صحّة تقديرهم هذا، إذ إن حشد الحاميات الفرنجية من أمكنة مختلفة في معركة حطين، ترك معاقل الفرنج بلا حماية تقريباً، ولذا فإنها سرعان ما تهاوت واستسلمت للمسلمين دون مقاومة تذكر، بعد أن هزم جيشهم المتجمع من معاقلهم المختلفة في بلاد الشام.

وإذْ أدركَ الفرنج من التجربة خطر هجمات الرماة المسلمين على جيوشهم الزاحفة، وتعرضهم للتطويق نظراً للنقص في احتياطهم التعبويّ (التكتيكي)، وإذْ أدركوا كذلك خطر تظاهر فرسان المسلمين بالفرار ثم الكرّ على صفوفهم بعد اختلال نظام جيشهم، فإنهم أخذوا يحرصون على تماسك صفوفهم، وذلك بأن عملوا على أن يكون على جناحي جيشهم حواجز طبيعية، وعلى أن يكون لهم احتياطي تعبوي (تكتيكي)، بعد أن

أدركوا أن نظام فرسانهم كان يختل بعد أن يقوموا بالهجمة الأولى، إنْ لم تكن تلك الهجمة قاضية على العدو(١٢). وكانت الحركات التكتيكية لفرسان الأتراك الرماة، أشد ما يرهق الفرنج، مثلما كانوا يخشون صيحات الحرب التركية وأصوات طبولهم التي وصفوها بأنها أصوات بربرية(١٣): (The barbarous sounds of the Turkish drums) ، وقد كانوا يخشون الخصائص العسكرية للأتراك أكثر من خشيتهم من أي شعب آسيوي آخر.

أما السلاح التقليدي لفرسان الفرنج الذين كانوا يكوّنون العمود الفقري للجيش الفرنجي، فقد كان السيف والرمح. وقد تطوّرت العدة الدفاعية عند هؤلاء الفرسان، إلى أن أصبحت تحتوي على درع معدني يغطي جميع أجزاء الجسم، بما في ذلك اليدين والقدمين، فضلاً عن الوجه والجزء الأكبر من العنق، بل قد تتجاوز هذه العُدّة الدفاعية الفارس إلى فرسه، وبذا أصبحت العدد الحربية الفرنجية التي تحملها الفرسان أثقل مما كانت عليه من قبل، وأكبر تكلفة. ويرى بعض المؤرخين الغربيين أن هؤلاء الفرسان، كثيرا ما كانوا يفتقرون إلى القيادة العسكرية الماهرة وإلى وحدة القيادة(١٤).

أما جيش المسلمين، وأغلبيته كانت من الأتراك كما أسلفنا، فقد كان أكثر جنده فاعليةً من الفرسان، كما كانت الحال عند الافرنج. إلا أن الفرسان الأتراك كانوا أسرع حركة وأكثر مرونة وقدرة على المناورة من الافرنج، وذلك بسبب خفة خيولهم وخفة سلاحهم. وكان سلاحهم الرئيسي القوس، إلا أنهم كانوا يحملون كذلك الترس والرمح والدبّوس، وكان الرمح والترس عندهم أخف ممّا هما عند الفرنج. وقد مكّنتهم خفة حركتهم والرمي بالسهام من على ظهور خيولهم من أن يقاتلوا وهم على مسافة من أعدائهم، ومن اختيار الوقت الملائم للإطباق على العدو. وكانوا ينسحبون في حركات تكتيكية ماهرة أمام هجوم فرسان الافرنج، ولكنهم كانوا يكرون عليهم في الوقت الذي يرونه مناسباً للكر. وقد قال فيهم مؤرخ

أوروبي وهو يتحدث عن فرهم وكرّهم: «إنهم كانوا كالذباب الذي يمكن صدّه، دون أن يمكن طرده» (They were like flies who could be beaten off but not driven away).[١٥] وكثيراً ما كان فرسان الترك يتظاهرون بالتقهقر من أجل إيقاع أعدائهم في كمائن، مستغلين سرعة حركتهم من أجل مهاجمة جناحي جيش العدو ومؤخرته. وكانوا يتخيّرون مهاجمة مؤخرة الجيش المعادي لإجباره على القتال وهو في حالة زحف وتحرك. وكانت الرّماية بالسهام مَعْلَماً بارزاً من معالم حربهم، ولا سيما وهم على ظهور الخيل، دونما حاجة إلى التوقف أو الترجّل، حتى حينما يكونون في حالة تقهقر. وكان من نتائج هذا الأسلوب في القتال، اختلال نظام الجيش الفرنجي، وإيقاع إصابات كثيرة بخيول فرسانه. وكانت رمايتهم بالسهام تُحدِث توتراً شديداً في صفوف الفرنج، إضافة إلى الخسائر البشرية، وتجبرهم على أن يفضوا تشكيلهم العسكري من أجل أن يهاجموا بعد أن تستثيرهم السهام التي تقع فيهم. وكانوا حين يلتحمون مع أعدائهم يعلّقون أقواسهم بأكتافهم، ويستعملون الرمح والسيف والدبوس[١٦].

وفي عهد صلاح الدين، تميزت جيوش المسلمين المجمّعة من أماكن مختلفة بوحدة قيادة لم تكن متوافرة لها من قبل، وبقيادة ماهرة، تحسن التخطيط للمعركة، وتأمين عوامل الظفر فيها، ثم الإشراف شخصياً على سيرها وتطور مراحلها.

قُبيل المعركة

يذكـر أبو شامة المقدسي في «الروضتين» أن صلاح الدين قد نذر عقب مرضه في حرّان سنة ٥٨٢هـ، ولدى رجوعه إلى دمشق بعد شفائه، ألا يقاتل أحداً من المسلمين، وأن يستمر في مجاهدة الفرنج، وأن يقتل القومص (الكونت) صاحب طرابلس، والبرنس (الأمير) صاحب الكرك إذا ظفر بهما. أما الأول، واسمه ريموند، فقد كان من مقدمي الفرنج، ذا مكر ودهاء، إضافة إلى جرأة في القتال، وكان شديد النكاية في المسلمين. وأما الثاني، فلأنه عندما عبر به بالشوبك قفل من الديار المصرية خلال هدنة مع المسلمين، ونزلوا بالأمان في الأرض التي كان يسيطر عليها، غدر بهم وقتلهم، بعد أن ناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين. وقد قال ما يتضمن الاستخفـاف بالنبي محمـد ﷺ، ومن جملة ما قالـه: «قولوا لمحمد يخلصكم»![17].

وفي منتصف محرم سنة ٥٨٣هـ، خرج صلاح الدين من دمشق وتوجه إلى الكرك، وشن الغارة على أطرافها، وكان قد سيّر إلى حلب من كُلِّف إحضـار العسكـر منها، وكان كذلك ينتظر اجتماع عسكر مصر والشام. وبقي في أرض الكـرك إلى أن وصـل الحجـاج الشـاميون إلى الشـام، ووصلت قافلة مصر إلى مصر. وكان رجوع حجاج الشام إلى بلادهم في صفر سنة ٥٨٣هـ[18]. وعندما وصلت عساكر مصر، أمرهم صلاح الدين بالانبثـاث في أراضي الكـرك والشـوبـك. وفي الوقت نفسه، عمد ابنه الأفضل وابن أخيه تقي الدين إلى مشاغلة الفرنج، إذ أرسل الأفضل سرية

إلى صفورية في الجليل أنكت في الفرنج، بينما شاغل تقي الدين الفرنج في الشمال[١٩]. وينقل أبو شامة عن محمد بن القادسي في تاريخه ما احتوته رسالة كتبها إلى بغداد عبد الله بن أحمد المقدسي، يذكر فيها أنه عندما تلاحقت الأجناد من الموصل وديار بكر وإربل قبيل معركة حطين، جمع صلاح الدين الأمراء وقال: «هذا اليوم الذي كنت أنتظره. وقد جمع الله لنا العساكر، وأنا رجل قد كبرت، وما أدري متى أجلي. فاغتنموا هذا اليوم وقاتلوا لله تعالى، لا من أجلي . . .»[٢٠].

هذا، وقدّرتْ مصادر الفرنج فرسان المسلمين بـ (١٢٠٠٠) فارس، إضافة إلى الكثيرين من المتطوعين الذين زادوا عدد جيش المسلمين حتى أوصلوه إلى (١٨٠٠٠) مقاتل[٢١]. وقبل معركة حطين بأيام قليلة، وعلى وجه التحديد يوم الجمعة الموافق **٢٦** حزيران من عام **١١٨٧**م، استعرض صلاح الدين جنده في حوران، وتولى هو قيادة القلب، وولّى ابن أخيه تقي الدين قيادة الجناح الأيمن، وكوكبرى قيادة الجناح الأيسر. وانتظر في الطرف الجنوبي لبحيرة طبريا خمسة أيام، كانت طلائعه خلالها تجمع المعلومات عن الفرنج[٢٢]. وقد رأى صلاح الدين أن التخطيط العسكري السليم يقتضي احتلال مدينة طبريا قبل بدء المعركة الحاسمة مع الافرنج، وكانت تحكمها في ذلك الوقت زوجة الكونت ريموند صاحب طرابلس، واسمها اسكيف Eschive، ولم يجد جنده صعوبة في احتلال المدينة، إذ إنهم احتلوها بعد ساعة واحدة من القتال يوم **٢١** ربيع الآخر **٥٨٣**هـ[٢٣]، وبذا سيطر المسلمون على ماء البحيرة وحالوا دون الفرنج والماء، في حين كان الجوّ حاراً لاهباً. وحين فرغ ما عند الفرنج من الماء، سلبهم العطش القرار كما يقول ابن واصل. وعندما اجتمعوا على تل حطين، أشعل المسلمون حولهم نبات الحلفاء الجاف، فوقعوا بين العطش والنار والحرّ، وأخذ الدخان الحار يتجه نحوهم وهم فوق التل[٢٤].

وفي الليلة السابقة للمعركة، سهر صلاح الدين الأيوبي إلى أن عين

مقدّمي كل مجموعة من مجموعات عسكره حسب التشكيلات العسكريّة التي كانت متبعة في ذلك الزمن، ومن الألقاب العسكرية التي كانت مستعملة في عسكره، الأطلاب، والطلب لفظ كردي، معناه الأمير الذي يقود مئتي فارس في ميدان القتال، ويطلق كذلك على قائد المئة أو السبعين، وكان أول ما استعمل اللفظ بمصر أيام صلاح الدين. وقد عيّن قبل المعركة لكل أمير موقعاً في الميمنة والميسرة لا يتحول عنه. وكان ما فرّقه من النشاب أربعمائة حمل، ووقف سبعين عجلة من العجلات التي تجرّها الخيل، يأخذ منها من خلت جعبته وفرغ نشّابه، وكانت بحيرة طبريا وراء عسكر المسلمين، في حين قطعت سبل الورود على الماء عن الأفرنج(٢٥).

ومن الواضح أن إرادة القتال عند جيش صلاح الدين كانت عظيمة قبيل المعركة، لأن ظروف المعركة كانت مواتية لهم، عسيرةً على أعدائهم. ويتواءم ما نقل أبو شامة عن العماد الأصفهاني في هذا الصدد، مع ما أورده رنسمان، إذ يقول العماد بلغته المسجوعة الزخرفية وهو يصف حال المسلمين في الليلة السابقة للمعركة: «. . . وهذا مكثر التكبير، ومنتظر للتبكير، وهذا راج للشهادة. . . ، والسلطان رحمه الله قد وثق بنصر الله، فهو يمضي بنفسه على الصفوف، ويحضرهم ويعدهم من الله بنصره المألوف(٢٦)، ويقول ستيفن رنسمان: «وكان المسلمون ينشدون ويبتهلون ليلة معركة حطين في حين كان الفرنج يعانون من التعب والعطش»(٢٧). وفي تلك الليلة، حرّك صلاح الدين جنوده، فما أصبح الصباح إلا وقد كان جيش الأفرنج مطوّقاً تطويقاً تاماً(٢٨).

وقد زاد في محنة الجيش الفرنجي أنه كانت تنقصه وحدة القيادة واجتماع الرأي، وذلك بسبب التنافس الذي كان قائماً بين ملك القدس جاي دي لوزينان Guy de Lusignan ونبلاء الفرنج قبل معركة حطين. بل إن أحدهم، وهو الكونت ريموند Raymond حاكم طرابلس الفرنجي، وكان

أقـوى نبـلاء الفرنج، قد سبق له أن رفض الدخول في طاعة جاي سنة ١١٨٦م، عنـدمـا توج هذا ملكاً على القدس. وتمضي بعض المصادر الغربية إلى أكثر من ذلك، إذ تذكر أنّ ريموند هذا كان على اتصال مع صلاح الدين قبل معركة حطين[٢٩]. ومن أجل ذلك، اضطر ملك القدس أن يصانع الكونت بطريقة مذلّة عندما احتاج إلى أن يجمع جيوش الفرنج من مختلف الأمـاكن التي كانوا يسيطرون عليها في بلاد الشام[٣٠]. وقد اختلفت التقديرات حول عدد رجال الجيش الفــرنجي الذي تجمّع تحت قيادة ملك القدس، إذ أورد ستيفن رنسمان أرقاماً متباينة عنه، منها أنه كان يتـألف من (١٠٠٠) فارس من مملكـة القـدس، و(١٢٠٠) فارس دفع الملك هنري الثاني أجورهم، و(٤٠٠٠) تركبولي Turcopolis و(٣٢٠٠٠) من المشاة[٣١]، بينما يقدر مصدر افرنجي ثان أن مجموع جند الفرنج كان (٢٠٠٠٠) جندي، ويقول مصدر آخر إن الجيش كان يتألف من (١٠٠٠) فارس، إضافة إلى (٢٠٠) فارس جهزهم الملك هنري الثاني و٥٠ إلى ٦٠ فارساً أتى بهم صاحب أنطاكية[٣٢].

وأغلب الظن أن هذا المصدر قد اقتصر في تقديراته على الفرسان دون المشـاة في الجيش الفرنجي. ثـم تتفاوت التقديرات الافرنجيّة بعد ذلك تفاوتاً كبيراً في تقديراتها لمجموع المقاتلين ما بين (٩٠٠٠) و(٤٠٠٠٠) و(٥٠٠٠٠) مقاتل. وبعد أن أورد رنسمان هذه التقديرات المتباينة، رأى هو أن الجيش الافرنجي لم يتعد (١٥٠٠٠) مقاتل، وأن جيش المسلمين لم يتعد (١٨٠٠٠) بين فارس وراجل[٣٣].

ويفصّل رنسمان تقديراته عن جيش الفرنج بقوله إنه في أواخر حزيران سنة ١١٨٧م، اجتمع للفرنج (١٢٠٠) فارس بكامل سلاحهم، اضافة إلى عدد أكبـر من الخيالة المحليين الخفيفي التسليح والتركبوليين، وحوالي عشرة آلاف من المشاة. ثم يقول بما يبدو مناقضاً لما سبق أن ذكره عن عدد جيش المسلمين، إن عدد جيش الفـرنـج كان موازياً تقريباً لعدد جيش

المسلمين[٣٤]. إلا أن العماد الأصفهاني وجمال الدين ابن واصل يقدران جيش الفرنج بخمسين ألفاً أو ما يزيد على ذلك الرقم[٣٥].

وقد كان فرسان الفرنج أفضل تسليحاً من أي جند للمسلمين، إلا أن خيالة المسلمين الخفيفة كانت أحسن تسليحاً من التركبوليين ومشاة الفرنج، أو أنهم كانوا أفضل من فرسان الفرنج[٣٦]. هذا وقد تجمع جيش الفرنج عند قرية صفورية، وكانوا وهم هناك في وضع جغرافي طوبوغرافي جيد[٣٧]. وكان من رأي الكونت ريموند Raymond de Saint Angilles أن يتخذ الفرنج موقفاً دفاعياً قبل أن تبدأ معركة حطين، ورأى كذلك عدم الاستجابة لاستغاثة زوجته اسكيف Eschive لاستعادة طبريا، بعد أن احتلّها صلاح الدين، ولم يبق فيها بيدها إلّا القلعة، وذلك خوفاً على جيش الفرنج، ثم خوفاً بعد ذلك على ضياع مملكة القدس، إذا هزم هذا الجيش. وهو برأيه هذا كان يسير على سياسة تقليدية عند الفرنج بعدم دخول معارك حاسمة مع جيش أكبر من المسلمين، اتكاء على أن هذا الجيش سوف يتفرق بعد انتهاء موسم الحملات[٣٨]. وتختلف هذه الرواية عن موقف الكونت ريموند، وهي رواية متواترة في المصادر الغربيّة، عن رواية العماد الأصفهاني الذي ذكر أن الكونت حرّض الفرنج على مناجزة جيش صلاح الدين بعد أن سمع باحتلال صلاح الدين طبريّا[٣٩]. بل إن هذه المصادر الغربية تنقل أن بعض كُتّاب الفرنج اتهموا فرسان ريموند بأنهم أخبروا صلاح الدين عن الطريق الذي سوف يسلكه جيش الفرنج في زحفه نحو حطين، وأنه عندما حذّر الكونت من الزحف إلى موقع المعركة في ظروف غير مواتية، ومنها شدة الحر، اتهمه جيرارد مقدّم الفرسان الهيكليين Grand Master Gerard وأرناط صاحب الكرك والشوبك Renault of Chatillon بالجبن، وبأنه باع نفسه للمسلمين[٤٠].

ومهما يكن من أمر، فإن الجيش الفرنجي الذي كان قد تجمع في صفورية في خمسين ألف مقاتل حسب تقديرات ابن واصل[٤١]، غادر

معسكـره بتحـريضٍ من جيرارد وأرنـاط على الرغم من نصيحة الكونت ريمـوند، صباح يوم ٣ تموز عام ١١٨٧م، متجهاً إلى طبريّة، ولكن لم يستـطع الوصول إليها، إذ تعرض خلال زحفه لوطأة الحرّ وتكاثف الغبار وشدّة العطش، مما أفقده روحه المعنويّة وذلك اضافة إلى تعرّضه لسهام خيّالة المسلمين، مما اضطر ملك القدس إلى أن يتوقف عند قرية لوبية من أجل أن يدخل المعركة[٤٢].

وكان المسلمون بعد احتلالهم طبريا، قد حازوا، كما سبق أن ذُكِرَ، ماء بحيرتها وحجبوا الماء عن الفرنج، ففرغ ما عندهم من الماء، وأخذتهم سهـام المسلمين، وفعـل فيهم العـطش الشديد فعله[٤٣]. وأخيراً وصل الجيش الـزاحف إلى حطين، وهي قرية يقـال إن بالقرب منها قبر النبي شعيب، وتبعد تسعة أميال عن طبريا. ويقدر العماد الأصفهاني المسافة بين طبـريا وعكـا بفـرسخين[٤٤]. وعنـدمـا تجمـع الجيش بتل حطين، واشتعلت النار في الحلفاء الجافة من حوله، وقع الفرنج بين حرّ العطش ولهيب النار وحرارة الجو الصيفي والغبار الكثيف[٤٥].

المعركة: سيرها ونتائجها

في يوم السبت الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ، الموافق ٤ تموز ١١٨٧م[٤٦] وقعت المعركة الفاصلة بين الجيشين، وهما أكبر جيشين تجمّعا للطرفين منذ بدء الحروب الصليبية، إذ كان عسكر المسلمين قد توافد من جميع أنحاء البلاد التي يحكمها صلاح الدين، في حين تجمّع عسكر الفرنج من مختلف الأماكن التي كانوا يسيطرون عليها. إلا أن ارادة القتال كانت قد انتهت عند الفرنج في صباح ذلك اليوم حتى قبل بدء المعركة. وقد ارتكب الفرنج بالإضافة إلى أخطائهم الكثيرة خطأً تكتيكياً أو تعبويًّا جسيماً عندما افترق مشاتهم عن الفرسان، نتيجة هجمات المسلمين المتكررة على الجيش الزاحف في اليوم السابق للمعركة، حتى إن مؤرخي الفرنج عزوا هزيمة الجيش الفرنجي النهائية إلى هذا الافتراق، إذ إن انكشاف المشاة الذين كانوا يحيطون بالفرسان لحمايتهم من السهام، عرّض الفرسان لضربات مباشرة من رماة المسلمين. وقد كان كذلك لسرعة حركة الفرسان المسلمين أثر كبير في حسم المعركة في غير صالح الفرنج.

ويروي مصدر أوروبي أنّ الأمر قد بلغ بمشاة الفرنج بعد أن انفصلوا عن الفرسان إلى حد التمرد حينما دعوا إلى العودة إلى مواقعهم فأبوا[٤٧]. ويذكر مؤرخ غربي حديث أن مشاة الفرنج قد انفصلوا عن الفرسان في كتلة متراصة، وصعدوا تلاً، ورفضوا العودة بسبب العطش الشديد، فقتلوا جميعاً. بينما تقول رواية افرنجيّة قديمة إنهم استسلموا للمسلمين، في حين تقول رواية أخرى: إن خمسة من فرسان ريموند ذهبوا إلى صلاح

الدين وتوسّلوا إليه أن يريحهم من الحياة لكي يتخلصوا من الشدّة البالغة التي كانوا يعانون منها[٤٨]. وإذا كان من النتائج النفسية للهزائم أن يتهم المنهزمون بعضهم بعضاً، فربما كانت هذه التهم والافتراضات التي علّل بها الفرنج هزيمتهم نوعاً من هذه النتائج ليس إلاّ. وقد يعزز رأينا هذا ما رواه رنسمان من أن ريموند صاحب طرابلس حمل مع فرسانه لاختراق صفوف المسلمين التي كانت تحيط بفرسان الفرنج، ففتح له تقيّ الدين ابن أخي صلاح الدين ثغرة بين جنوده، ثم أغلق الثغرة من الخلف برجاله، وحال بين فرسان ريموند والعودة إلى رفاقهم، فلم يكن أمام ريموند إلا الانهزام بفرسانه إلى طرابلس، وتبعه بعد ذلك في الانهزام باليان صاحب الرملة Balian of Ibelin وريناالد صاحب صيدا[٤٩] Reynald of Sidon. وهذه الرواية مخالفة بالطبع للرواية السابقة الخاصّة بمجموعة من فرسان ريموند. هذا وقد اختلفت الروايات التفصيلية عن معركة حطين فيما أوردته المصادر العربية واللاتينيّة كلتاهما. ومن شهود العيان الذين كتبوا عن المعركة من الجانب الفرنجي Ernoul تابع باليان Balian of Ibelin الذي سبق الحديث للتوّعن هروبه من المعركة. وشهدها من الجانب الإسلامي عماد الدين الأصفهاني، والأفضل ابن صلاح الدين، ولكن رواية الأفضل عن المعركة كانت قصيرة[٥٠]. وقد أورد جمال الدين ابن واصل في «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» رواية الأفضل عن آخر مرحلة من مراحل المعركة، فذكر أن الأفضل كان بجانب أبيه صلاح الدين، وهو أول مصافٍّ يشهده. ثم ينقل عنه قوله في حديثه عن المرحلة الأخيرة من المعركة، حين التجأ ملك القدس الفرنجي إلى تل حطين، يحيط به فرسانه الذين كانوا يذبّون عنه، فيقول: «فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي. قال: فنظرت إليه وقد عَلَتْهُ كآبة، واربدّ لونه وأمسك بلحيته، فتقدم وهو يصيح: «كذب الشيطان»! فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا وصعدوا

على التل. فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم، صحت من فرحي: هزمناهم، هزمناهم! فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى حتى ألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل هو مثل ما فعل أولاً. وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتلّ، فصحت أنا: هزمناهم! فالتفت إليّ والدي فقال: اسكت! ما نهزمهم حتى تسقط الخيمة - يعني خيمة الملك. فهو يقول لي ذلك، وإذا الخيمة سقطت. فنزل السلطان فسجد شكراً لله، وبكى من شدة فرحه[٥١]. وكان سبب سقوطها كما يقول ابن واصل، أن الفرنج لما حملوا تلك الحملة الثانية، ازدادوا عطشاً، وكانوا يرجون الخلاص مما هم فيه. فلما لم يجدوا إلى الخلاص طريقاً، نزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض، فصعد المسلمون إليهم، وألقوا خيمة الملك، وأسروهم كلهم[٥٢].

وفي حديث العماد الأصفهاني عن المعركة يقدّم لنا بلغته المسجوعة المتأنقة وصفاً تفصيلياً لما انجلت عنه من نتائج، دون أن يفصّل لنا تتابع أحداث المعركة نفسها. وأرجح أنه لم يشترك بشخصه في القتال، وأن روايته عن المعركة هي رواية من شاهد آثارها فحسب، كما يدل على ذلك حديثه عنها عندما عبر بحطين، إذْ ذكر أنه عندما عبر بالموقع، لم يستطع حصر عدد القتلى، ولكنه قال عن الأسرى إنه رأى «في الحبل الواحد ثلاثين أو أربعين يقودهم فارس، وفي بقعة واحدة مئة أو مئتين يحميهم فارس»[٥٣]. وقد روى شاهد عيان لبهاء الدين ابن شداد، وهو معاصر لأحداث حطين، أنه لقي واحداً معه طنب خيمة، فيه نيّف وثلاثون أسيراً يجرّهم وحده[٥٤].

وفي الحديث عن حصيلة المعركة من القتلى والأسرى، نجد التباين والاختلاف اللذين وجدناهما في تقدير تعداد الجيوش التي اشتركت في المعركة. ولا غرابة في ذلك، فإنه كان من المتعذر في تلك الأيام تقديم أرقام دقيقة عن عدد المتقاتلين وعن ضحايا المعارك الكبيرة، إذ إن أية أرقام

تعـطى كان لا بدّ أن تكـون وليدة الحَـدْس والانـطبـاعـات والتقـديرات الشخصية، التي تختلف حسب موقف المصدر ومشاعره وطريقة حساباته. ففـرسان الهيكل أو الهيكليون Templars كتبوا في رسالة لهم أنّ (١٠٠٠) فارس منهم قد قتلوا أو أسروا، وأن (٢٠٠) فارس آخر قد هربوا، في حين يقول مصدر فرنـــجي آخر إن (٢٦٠) من الهيكليين قد قتلوا في المعركة، ولم يكد ينجو منهم أحد[٥٥]. أما العماد الأصفهاني فيقول في حديثه عن قتلى الفرنج وأسراهم فيما نقله عنه أبو شامة: «فمن شاهد القتلى ذلك اليوم قال: ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل»[٥٦] ويقول أبو شامة المقدسي في «الروضتين» كذلك، إنه لم يفلت من الفرنج إلا نحو مئتين، وكانوا كما قيل (٣٢) ألفاً، وقتل (٢٣) ألفاً، ولم يتركوا في بلادهم من يقدر على القتال إلّا قليلاً. ولنا أن نفترض أن أبا شامة يقدّر الأسرى بالرقم المتبقي من (٣٢) ألفا، بعد احتساب من قتل ومن أفلت من الفرنج[٥٧].

إلا أن أبا شامة، الذي توفي بعد حطين باثنتين وثمانين سنة، أثبت في كتابه روايات مختلفة عن خسائر الفرنج، نتيجة لاختلاف المصادر التي نقل عنها، دون أن يناقش الاختلاف في الأرقام التي أوردها. فروايته الآنفة الذكر أخذها من كتاب في وصف حطين حرّره عبد الله بن أحمد القادسي وأرسل به إلى بغداد، عاصمة الخلافة العباسية. ولكنه نقل من كتاب آخر ورد إلى بغداد كذلك أنه قتل من الافرنج ثلاثون ألفاً، وأن عددهم كان (٦٣) ألفاً بين فارس وراجل. وأنه كان يرى من رؤوس الفرنج كل يوم مثل البطيخ، وأنه أسر منهم ثلاثون ألفاً. وبلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير. ثم ينقل عن كتاب ثالث أن الفرنج كانوا (٤٥) ألفاً لم يسلم منهم سوى (١٠٠٠)، وقتل الباقون أو أسروا، وأن بعض فقراء العسكر وقع بيده أسير، وكان محتاجاً إلى نعل فباعه بها، فقيل له في ذلك، فقال: «أردت أن يُذكر ذلك»! وينقل عن رسالة كتبها القاضي الفاضي على لسان صلاح الدين

إلى دار الخلافة، أن عدد القتلى يزيد على أربعين ألفاً وأنه لم يبق أحد من الـديويّة ـ والديويّة هم الداويّة، أو فرسان الهيكل[٥٨]. ويذكر ستيفن رنسمان Runciman أن أسقف عكا كان من بين القتلى[٥٩].

وبوسعنا أن نكوّن صورة متكاملة عن كبار أسرى الافرنج من خلال الـروايات العـربية والأوروبية معـا. وقـد اشتملت القـائمة كما في هذه الروايات على أسماء جاي دي لوزنان Guy de Lusignan ملك القدس، وأخيه جفري، وأرناط Renault of Chatillon أمير الكرك والشوبك، وأما لرك Constable Amalric ، ومـاركيز مونتفـرات Montferrat وهمفـري Humphry سيد تورون، وجيرارد Gerard مقـدّم الفرسان الهيكليين The Templars أو الداويّة، ومقدّم الاسـبـتـاريّة The Hospitalers وهيو صاحب جبيل Hugh II Embriaco ، وابن صاحب اسكنـدرونـة، وصـاحب مرقية، وهي قلعـة بساحل الشام قرب حمص، وصاحب أنطاكية[٦٠].

وقد استقبل صلاح الدين في خيمته بعد انتهاء المعركة كبار الأسرى، وفيهم ملك القدس وأرناط أمير الكرك، وكان العطش قد أخذ من الأسرى كل مأخذ، فأمر صلاح الدين بتقديم ماء الورد وشربةٍ من جلّاب مثلج ـ إلى الملك ليشرب منه، فقدّم الملك الماء لأرناط بعد أن شرب هو منه، ولكن صلاح الدين نبّه إلى أنه لم يأذن بتقديم الماء لأرناط، لأن مثل هذا الأذن له بأن يشرب من مائه إنما هو نوع من الأمان. ثم وبّخ صلاح الدين أرناط على نقضه للعهود واستهانته بما تقتضيه الهدن المعقودة، فأجاب هذا عن طريق الترجمان بأنه قد جرت بذلك عادة الملوك! وبعد أن رفض أرناط عرض صلاح الدين عليه بأن يسلم، قتله بيده، لأنه كان قد نذر أن يقتله إن هو ظفر به بسبب ما كان قد فعله مع قفل من الديار المصرية. وحين ارتاع ملك القدس لمقتل أرناط، طمأنه صلاح الدين، وأخبره أنه ليس من العـادة أن يقتـل الملوك، وأن ما حلّ بأرناط، إنما كان جزاء وفاقا لغدره ونقضه المتكرر للعهود[٦١].

ثمّ سيّر صلاح الدين كبار الأسرى إلى دمشق، ومنهم ملك القدس، وأخوه وهمفري، وصاحب جبيل، ومقدم الداوية، وجميع أكابرهم، من أجل أن يودعوا السجون هناك(٦٢). وكان ما غنمه المسلمون من السبي والبقر والغنم والبغال ما لم يجيء من يشتريها لكثرتها، في حين أن الغنيمة من الخيل كانت قليلة، لأن الفارس الفرنجي كان مغطّى بالزرد، وإذا لم يسقط فرسه، فإنه كان يستمر في القتال، وهذا يعني أن معظم خيول الفرنج قد سقطت أثناء احتدام المعركة(٦٣).

ولم يغب عن مؤرخي المسلمين وكتّابهم ما عنته معركة حطين في الصراع الطويل بينهم وبين الفرنج، كما يتبيّن من أقوال مجموعة منهم. فابن واصل يقول في كتابه «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب»: «ومذ ملك الفرنج البلاد الساحلية واستولوا عليها، لم يقع للمسلمين معهم يوم كيوم حطين، فرحم الله الملك الناصر صلاح الدين، وقدّس روحه، فلم يؤيد الاسلام بعد الصحابة رضي الله عنهم برجل مثله ومثل نور الدين محمود ابن زنكي، فإنهما جدّدا الاسلام بعد دروسه، وشيّدا بنيان التوحيد بعد طموسه»(٦٤).

ويقول أبو شامة وهو يكرّر عبارات العماد الأصفهاني: «ومذ استولى الفرنج على ساحل الشام، ماشفى المسلمين كيوم حطين غليل. فالله عزّ وجلّ سلّط السلطان وأقدره على ما أعجز عنه الملوك، وهداه من التوفيق لامتثال أمره ومن إقامة فرضه للنهج المسلوك... ولو لم يكن له إلّا فضيلة هذا اليوم، لكان متفرداً على الملوك السالفة، فكيف ملوك العصر في السموّ والسوم؟ غير أن هذه النوبة المباركة كانت للفتح القدسي مقدّمة»(٦٥).

هذا وقد كان لا بدّ لمعركة كبيرة حاسمة كمعركة حطين من أن يكون لها آثار مباشرة عاجلة، وأخرى لاحقة آجلة، ونقتصر هنا على إيراد الآثار العاجلة للمعركة، وهي تلك التي تلت النصر العسكري مباشرة، أي في

العام الذي وقعت فيه المعركة.

لقد كان تحرّز الفرنج التقليدي من خوض معركة حاسمة مع جيش كبير، قائماً على تقدير واقعي سليم لما يتناسب مع أوضاعهم في المشرق الاسلامي، لأنهم كانوا يدركون أن الهزيمة الساحقة أمام جيش من هذا النـوع، من شأنهـا أن تتـرك حصـونهم وقلاعهم بلا مدافع عنها، إذ إن المعارك الكبيرة الحاسمة كانت تتطلب أن يشركوا حاميات تلك الحصون والقلاع فيها، ولذا فإن من الآثار المحتومة للهزيمة، أن تبقى مواقعهم في الأرض المحتلة دونما حماية كافية. ولم يكن هذا الأمر خافياً على الكونت ريموند صاحب طرابلس الذي اتهمهُ أصحابهُ بالخيانة، لأنه كان ينصح باتخاذ موقف دفاعي قبيل معركة حطين. غير أن عوامل وظروفاً سبق أن ذكرناها في الصفحات السابقة كانت أقوى من تحرّز ريموند وحذره، ولذا فقد وقعت المعركة، وانهزم الفرنج أمام جيش المسلمين بشكل لم يعرفوه من قبل، وتوالت الأحداث بعد حطين، لتثبت من خلال الواقع، ما كان من قبـل حدسـاً وتـوقّعاً. فبعد معركة حطين مباشرة، استسلمت صاحبة طبريا، زوجة الكونت ريموند، وكانت كما أوضحنا من قبل، قد اعتصمت بقلعـة المـدينـة، بعد سقوط المدينة نفسها بيد جنود صلاح الدين قبيل المعركة. وقد أحسن صلاح الدين معاملتها، وأرسلها إلى طرابلس، البلد الذي كان يحكمه زوجها(٦٦).

وقد عرف صلاح الدين كيف يستغل انتصاره وكيف يستفيد من حالة الرعب واليأس التي كان فيها الفرنج، إذ توجّه نحو معاقلهم في بلاد الشام، الواحد تلو الآخر، وأخذت هذه المعاقل تتهاوى أمامه بسرعة قياسية. فقد سقطت بيده تباعاً الفولـة، وكانت قلعة للداويّة أو فرسان الهيكل، ودبّورية وصفورية واللّجون وبيسان والناصرة وحيفا وعكا. وكان في موكب صلاح الدين عندما توجّه إلى عكا لفتحها، الأمير عزّ الدين ابن فليتة القاسم بن المهنـا الحسينى أمير المـدينـة المنورة، ولم يتم فتح في تلك الفترة إلا

بحضوره. ومن المدن والقرى والمواقع التي استعيدت كذلك بعد حطين: قيسارية وجنين وزرعين واللّجون، وجميع قرى عكا، والزيب ومعليا والبعنة واسكندرونة وتبنين وصيدا وبيروت ونابلس وعقربا وسبسطية والقيمون والطور وسنجل والبيرة ويافا وأرسوف وصرفند وقلعة أبي الحسن، وجبيل ومجدل يابا، وجبل الجليل والمجدل، والداروم وغزة وعسقلان وتل الصافية والتل الأحمر، والأطرون، وبيت جبريل، وجبل الخليل وبيت لحم واللد والرملة وقَرَتَيا وصور باهر وسلع وعفرا والشقيف، إضافة إلى القرى والحصون التي تتبع هذه الأماكن. ومما له دلالته، أنه بعد معركة حطين،جلا الفرنج عن منطقة نابلس، لأن الفلاحين المسلمين قاموا بثورة جماعية ضد الفرنج انتصاراً لصلاح الدين. وجدير بالذكر أن المجدل ويافا استعادهما الملك العادل أخو صلاح الدين بالقوة حين قدم بجنده من مصر لينضم إلى أخيه في الشام[٦٧]. ويجمل كتاب صدر عن صلاح الدين إلى بعض أهله حصيلة هذه الفتوح بالعبارة التالية: «ولم يبق في الساحل من جبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور. والعزم مصمّم على قصد القدس، فالله يسهله ويعجّله. فإذا يسّر الله تعالى فتح القدس، ملنا إلى صور والسلام»[٦٨].

هذا وقد كان صلاح الدين يرى أن الثمرة الكبرى للنصر في حطين ينبغي أن تكون بلد الإسراء، المدينة المقدّسة، التي كانت لبّ الصراع مع الفرنج، والتي كانت تعني بالنسبة إلى أيّ من الطرفين المتنازعين أكثر من مجرد مدينة تقوم على مساحة محدودة من الأرض. فالقدس كانت إذ ذاك، وما تزال حتى يومنا هذا، تعني جميع فلسطين، والاستحواذ عليها يعني السيطرة على جميع الأرض المقدسة. ولذا فإنه بعد أن تسلّم صلاح الدين عسقلان، ثم الأماكن المحيطة بالقدس، توجّه إلى المدينة المقدّسة. وحين قال المنجّمون لصلاح الدين: «على نجمك أن تدخل بيت المقدس، وتذهب عين واحدة منك»، قال: «قد رضيتُ بأن أعمى وآخذ

البلد»[٦٩]!، وقد قدّر من كان من الفرنج في القدس من المقاتلين عندما قصدها صلاح الدين بستين ألفاً. ولسنا هنا في معرض تفصيل الحديث في استعـادة صلاح الـدين للقـدس، إذْ إن ذلـك خارج عن موضـوع هذه الـدراسـة. ونكتفي بالقـول إن صلاح الدين تسلّم المدينة المقدّسة يوم الجمعـة السابع والعشرين من رجب وليلته عام ٥٨٣هـ، أي في ذكرى إسراء رسول الإسلام صلوات الله عليه إلى القدس من مكة، ثم عروجه من القدس إلى السماء. وقد شهد فتح القدس من أهل العلم خلق عظيم، وكذلك من الصوفية، وكان من معه من العلماء قد انضموا إليه وافدين من أرجـاء مصـر والشـام[٧٠]. والجـدير بالـذكر أنه لم يؤذ إنسان بعد دخول المسلمين القدس منتصرين، في حين أنه لما دخلها الفرنج عام ٤٩٢هـ، أحدثوا فيها مذبحة جماعية هائلة دونما تمييز، وفخروا بذلك في رسائلهم التي بعثوا بها إلى بعض الشخصيات الكبيرة في أوروبا.

شخصية القائد

لسنا ممّن يقدّسون الرجال الأفذاذ، ولا ممّن يتعبّدون للأفراد. ولكننا في الوقت نفسه، لسنا ممّن ينكر على الأفذاذ من الرجال دورهم في صناعة التاريخ. وإذا كنا نسلّم، كما ينبغي أن نفعل، بأن الفرد لا يمكن أن يضطلع وحده بعمل عظيم يحتاج فيه إلى جهود الألوف، بل إلى جهود الملايين لكي يمكن إنجازه، فإنه ينبغي علينا من خلال استقرائنا للتاريخ بوجه عام، وللتاريخ الإسلامي بوجه خاص، أن نعترف بأن الجهود الجمعيّة لا يمكن أن يكون لها أثر عظيم محمود، إلّا إذا وجدت القيادة التي تحسن تعبئتها وتوجيهها. فالقائد الناجح من شأنه أن يستثير الطاقات الكامنة في من يقود، ثم ينسّق هذه الطاقات لكي لا تتصادم ويعطل بعضها بعضاً، ثم يوجهها بعد ذلك إلى هدف سليم، كيلا يكون أثر استثارتها وتنسيقها مدمّراً على الرغم من ضخامته وقوّته، مثلما حدث على سبيل المثال في توجيه طاقات التتار والمغول إلى القتل والتدمير والسيطرة تحت قيادة حكامهم من أمثال جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك وغيرهم.

والناظر في التاريخ الإسلامي على وجه الخصوص، يستطيع أن يتبيّن صحة ما ذهبنا إليه، ولا سيّما إذا أخذ بعين الاعتبار، أن نمطاً معيناً من المجتمعات التي عرفها هذا التاريخ منذ دعوة الإسلام الأولى، ثم في القرون اللاحقة، قد تحوّل هو نفسه من حال إلى حال، حين تولت أمره قيادة صالحة استطاعت استثارة طاقاته من مكامنها، ثم نسّقت هذه الطاقات، ووجهتها إلى هدف عظيم. وإذا احْتُجَّ بأن قيادَة الرسول عليه

الصلاة والسلام لمجتمع الجزيرة العربي لا يصحّ أن تضرب مثلاً على مقولتنا هذه، لكونه رسولاً موحى إليه يستمد العون من السماء، فإن في التاريخ الإسلامي في الحقب التالية لعهد الرسول صلوات الله عليه، ما يدعم هذه المقولة، علما بأننا لا نسلّم باستثناء قيادة الرسول الكريم لمجتمع الجزيرة من القاعدة، لأن الله جل وعلا أعلم حيث يجعل رسالته، وما كان اختيارُهُ لنبيّه دون غيره من الناس إلّا اختياراً احتسبت فيه صفات الرسول الشخصية التي أهّلتهُ لأن يحمل الرسالة العظيمة إلى مجتمع الجزيرة العربيّة، ثم إلى الناس كافّة.

وإذ نتجاوز القرون الأولى من تاريخ الإسلام، لكي نصل إلى حقبة الحروب الصليبيّة، وهي حروب امتدّت من أواخر القرن الخامس الهجري إلى أواخر القرن السابع، فإننا نجد الدليل على صحّة ما ذهبنا إليه، ولا سيّما أنه لا يمكن القول إن القيادة القوية الصالحة للمعسكر الإسلامي في القرن السادس الهجري، قد انبثقت بصورة تلقائية عن مجتمع مُعَدّ لمثل هذه القيادة، مستعدّ لاستئناف المسيرة الإسلامية كما عرفت في صدر الإسلام. وقد عبّر ابن الأثير عن الأوضاع المأساوية التي كان يعيشها مجتمع المسلمين قبل نور الدين زنكي على الساحة إبان الغزو الصليبي بعبارة قاسية، ولكنها صحيحة، حين قال عن حكام المسلمين قبله انهم «كانوا كالجاهلية، هَمُّ أحدهِم بطنُه وفَرجُه، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً»(٧١)، وأيّما حديث لمؤرخي تلك الفترة عن مجتمع المسلمين في الشام ومصر والعراق، لم يكن أبداً يوحي بأنه كان مجتمعاً مثالياً يبغي الخير ويتجه إليه، إذْ كانت الأثرة والأنانية والفوضى والتناحر والتنافس والتظالم والقسوة، هي الصفات الغالبة على ذلك المجتمع، مما جعل صاحب الروضتين يرى، كما رأى معاصروه، أن قيام الدولتين النوريّة والصلاحية في القرن السادس الهجري، والتزام مؤسسي هاتين الدولتين بقواعد الإسلام بعد أن استيأس الناس من إحيائه مرة أخرى، إنما كان أمراً غريباً

غير متوقع، بعد أن ظن الكثيرون أن الحكم الصحيح بالإسلام إنما كان تاريخاً مضى وانقضى، وليس مما يمكن إحياؤه مرة أخرى[٧٢].

بل إنّ ممّا يؤيد دعوانا هذه، إضافة إلى وصف ما كانت عليه الحال قبل نور الدين زنكي، وما أصبحت عليه الحال بعيد وفاة نور الدين، ثم بعد غياب صلاح الدين عن المسرح السياسي في المشرق الاسلامي. إذ ما كاد نور الدين يُتوفّى وهو في بلاد الشام، وصلاح الدين مقيم إذ ذاك في مصر، حتى انتقضت الأمور في تلك البلاد، بعد أن سيطر على ولده الصبي جماعة من الطامحين الذين كانت مصالحهم الشخصية هي المحركة لتصرفّاتهم، وبلغ الأمر بهم أن تنازلوا عن أجزاء من بلاد المسلمين في الشام للفرنج في مقابل سكوت هؤلاء عنهم ونصرتهم على إخوانهم من المسلمين إذا استلزم الأمر ذلك[٧٣]. والأمر نفسه ينطبق على ما حدث بعد وفاة صلاح الدين، إذ إن التنافس والتنازع بين أبناء البيت الأيوبي بعد وفاته، نجم عنه أن سلمت القدس دونما قتال للفرنج[٧٤]. ولا يمكن عقلاً أن يكون الوضع السليم والنصر العسكري في المجتمع الإسلامي، إبّان حكم نور الدين وصلاح الدين من قبيل المصادفات، مثلما لا يمكن عقلاً أن يكون التخلخل في هذا المجتمع، والتراجع العسكري بعد وفاتهما، من قبيل المصادفات كذلك.

وإذ تُعنىٰ هذه الدراسة بصفة خاصة بمعركة حطين والشخصيات المرتبطة بها، فإن من الواجب تركيز الحديث على الشخص الذي كان في مركز القيادة لدى وقوع هذه المعركة، أي على صلاح الدين الأيوبي دون غيره. وهنا ينبغي أن نستذكر حقيقة هامة جدًّا لكيلا نخلط بين أوضاع كانت قائمة في زمن هذا الرجل، والأوضاع القائمة في زمننا هذا. ففي الزمن الذي نعيش فيه، لا تجتمع في المعتاد القيادتان السياسيّة والعسكريّة في شخص واحد. بل إن القيادة العسكريّة نفسها في زمننا هذا تنقسم غالباً ما بين تخطيط للحرب يوضع في مواقع بعيدة عن ميدان القتال، وقيادة فعليّة

للمعركة، يضطلع بها القادة الميدانيون في جميع مراحل المعركة. وعلى غير ذلك كان الأمر بالنسبة إلى قيادة صلاح الدين. ففي شخص هذا الرجل، اجتمعت القيادة السياسيّة بكل ما يرتبط بها من تنظيم لشؤون البلاد في مختلف الميادين، من إداريّة وماليّة وتعليميّة وعمرانيّة، والقيادة العسكرية التي تخطط لما يسمّى بزمننا هذا الاستراتيجية الخاصة بالحرب، وهي حرب استوعبت سنيّ صلاح الدين كلها، إضافة إلى سنيّ من قبله ومن بعده من القادة، ثم القيادة العسكريّة الفعليّة للمعارك، والمشاركة في أحداثها مثل أي جندي من جنوده، بما في ذلك التعرّض للخطر الذي كان يتعرض له أولئك الجنود. ولا يخفى أن قيادة شمولية مستوعبة كهذه لا بدّ أن يكون لها في نفوس أتباعه من مقاتلين وغير مقاتلين أثر خاص، يفوق الأثر الذي نعرفه في أيامنا هذه لساسة الدول وقادتها العسكريين.

وليس القصد هنا أن نجعل من صلاح الدين رمزاً تجريدياً للإنسان المبرّأ من كل عيب، إذ إن ذلك مخالف لطبائع الأشياء، مثلما أنه مخالف لحقائق التاريخ. فنحن نعلم على وجه التحديد، ومن خلال النصوص التاريخيّة المعتمدة، أنّ صلاح الدين قبل توليه السلطة في مصر، ثم في مصر والشام بعد ذلك، يتميّز عن صلاح الدين بعد تحمّل المسؤولية[٧٥].

وما من شك في أن شعور الرجل بالمسؤولية الكبيرة بعد أن أصبح وزيراً للعاضد الفاطميّ، إثْر وفاة عمه أسد الدين شيركوه، ثم بعد وفاة نور الدين وتوليه أمور المسلمين في مصر والشام وبعض البقاع الإسلامية الأخرى خارج هذين القطرين، قد جعل منه إنساناً يخرج عن دائرة ذاته الخاصة به إلى الدائرة الواسعة التي تنتظم المجتمع الإسلامي بأكمله. ومما لا جدال فيه، أنّ العظمة في شتّى مظاهرها ومجالاتها وأوجهها لا بدّ أن تتوافر فيها سمة ارتبطت بالعظمة والبطولة، منذ تعارفت الإنسانيّة على مفهوم هاتين الكلمتين: تلك هي الخروج من محيط الفرد إلى محيط

الجماعة، أو الخروج من الـ «الأنا» إلى الـ «نحن».

وهذا الخروج عن دائرة الفرد والذات إلى دائرة الجماعة، وهي هنا الجماعة الإسلامية، هو ما حدث فعلاً في مسيرة صلاح الدين الأيوبيّ بعد توليه الحكم والقيادة. ولـذا ينبغي ألّا نفـاجأ حين يقدم لنا القاضي بهاء الدين ابن شدّاد صورةً مثالية تكاد تكون مبرّأة من العيوب لصلاح الدين الأيوبي، لأن معرفته بصلاح الدين، واتصاله الوثيق به بوصفه قاضياً ورفيقاً وعالماً ومكلّفاً القيام بمهمة كبيرة، إنما كانا في السنوات الست الأخيرة من حياة صلاح الدين (٥٨٣-٥٨٩هـ)، وهي أجلُّ سنوات حياته، وأحفلها بالأحداث الكبار، إذ فيها وقعت معركة حطين، واستردّت القدس، وعقدت الهدنة ما بين صلاح الدين ورتشـارد قلب الأسد، وهي بالطبع الفترة التي انتهت بوفاة صلاح الدين بعد مرض واكب بهاءُ الدين ابن شدّاد عن كَثَب تطوّره يوماً بعد يوم، وشهد نهايته، وقدم لنا وصفاً مؤثّراً لما شاهده عبر أيام المرض، ثم حين انتقل ذلك القائد الفذ من عالم الشهادة إلى عالم الغيب.

ولا يَنْتَقِص من قيمة المادة التي أوردها ابن شداد في كتابه المميّز عن صلاح الدين الموسوم بـ «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيّة»، أنه قد خُطَّ بقلم محب ومعجب، ارتفع بمن كتب عنه إلى مرتبة المثل الإنساني الأعلى لرجال عصره، وذلك لأن معاصرته لصلاح الدين وقربه منه، ونزاهته وتحرزه تحرز القضاة المتحرجين فيما يورده ـ كل هذه تجعل من أقواله مادة ذات قيمة خاصة فيما يتعلق بصلاح الدين، وهي مادة فريدة في قيمتها وفيما اشتملت عليه من جزئيات وتفصيلات.

وقد لا نحتاج في هذا الموضع إلى أن نبرز المهارة العسكرية التي أبداها صلاح الدين تخطيطاً وتنفيذاً في معركة حطين، إذ إن في الصفحات السـابقـة حول هذا الموضوع ما يغني ويكفي. وما من متتبع لقصة هذه المعركة يستطيع أن ينكر الدور الكبير لقيادة صلاح الدين فيما آلت إليه من

نصـر للمعسكـر الإسـلامي. إلاّ أنّ الناس في المجتمع الإسلامي زمن صلاح الدين، وقبل صلاح الدين كذلك، ولمدة طويلة بعد صلاح الدين، كانـوا يتـطلعون إلى أن تتجسد في القائد المسلم مجموعة من السمات والخصائص تتعدى مجرد المهارة العسكرية، وهي سمات وخصائص من السهل ردها إلى مصدرين أساسيين يجتمعان ولا يتناقضان: أولهما مفهوم «المروءة» عند العرب قبل الإسلام، وثانيهما «دين» الإسلام بما ينبثق عنه وعن شريعته من قواعد التصرف والسلوك. ومن السهل جداً أن يربط الأول من هذين المصدرين بالثاني، بمجرد استذكار قول رسول الإسلام صلوات الله عليه «إنما بُعِثْتُ لأُتمِّمَ مكارم الأخلاق». ومنذ القديم، رأى الناس في كلمة «المروءة» جماعاً لما اصطلح على أنه مكارم أخلاق في المجتمع العربي قبل دعوة الإسلام. وقد رأوا أن من مقتضيات المروءة أن يكون من يتحلى بها شجاعاً، ولذا فإنه حين حاول الغربيون أن يترجموا هذه الكلمة العربيّة إلى اللغة الانجليزيّة، رأوا أنّ كلمتي «فضيلة الرجولة Manly Vitue» هما أقرب التعبيرات الانجليزيّة إلى مفهوم المروءة. وهنا قد نستذكر أن كلمـة Virtue أي «فضيلة» بالانجليزيّة، قد نقلت أصـلاً عن كلمـة Virtus اللاتينية، أي شجاعة، وهي لغة الرومان، إذ كان الرومان يضعون فضيلة الشجاعة فوق أية فضيلة من الفضائل الإنسانية، بل يرون في الشجاعة حصيلة الفضائل جميعاً.

إلا أن الشجـاعة التي كان يتحلى بها صلاح الدين، اتخذت سمة إسـلاميّة تختلف عن سمـة الشجاعة في المفهوم الجاهلي، إذ إن تلك كانت شجاعة مفرطة غير منضبطة بقواعد وحدود، ولم يكن لها هدف يرتبط بقيم ومثـل مستمدة من شريعة أو دين. وهذه السمة الإسلاميّة لشجاعة صلاح الدين، تمثّلت في مفهوم «الجهاد» بمعناه الإسلامي التعبُّدي. وإذا كان من السهـل على المـرء أن يدلّـل على اقتران شجاعة صلاح الدين بالسلوك التعبُّـدي، كمـا سنفعل بإيجاز في السطور اللاحقة، فإن عبارة

قصيرة وردت في تدوين سيرته لها دلالتها الواضحة على هذا الاقتران، تلك هي عبارة ابن شداد التي نصُّها: «قُرِئَ عليه جزءٌ من الحديث بين الصفّين»(٧٦)، أيُ أنّ جملة من أحاديث الرسول عليه السلام قد قرئت عليه، حين وقف جنده قبالة جند الفرنج قبيل بدء المعركة، وفي هذا ما لا تخفى دلالته عن اقتران الحرب عند صلاح الدين بالسلوك التعبّدي. ويؤكد هذا الذي ذهبنا إليه قول ابن شدّاد كذلك عن صلاح الدين: «ولو حَلَفَ أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلّا في الجهاد والإرفاد لصدقَ وبَرّ في يمينه... ولقد هجر في محبّة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذّه، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب فيها الرياح يمنة ويسرة. ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريّحة على مرج عكا، فلو لم يكن في البرج لقتلته. ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرةً واهتماماً»(٧٧).

وقد أُثِر عنه أنه كان إذا اشتدت الحرب يطوف بين الصفّين ومعه صبيّ واحد، وعلى يده جنيب، وهو الذي يقاد إلى الجنب من الخيل، من أجل ركوبه عندما تدعو الحاجة إلى ذلك. وكان يخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة، ويرتب قادة التشكيلات العسكرية ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها. وكان يشارف العدو ويجاوره(٧٨). وحين سلك طريق الساحل الفلسطيني، وهو يتجه من عسقلان إلى عكا، وكان الفصل فصل شتاء والبحر هائجاً هيجاناً شديداً ومَوْجُه كالجبال، يقول لنا مرافقه: «وكنت حديث عهد برؤية البحر، فعظم أمر البحر عندي حتّى خُيّل إليّ أني لو قال لي قائل: إنْ جزت البحر ميلاً واحداً ملّكْتُك الدنيا، لما كنت أفعل، واستسخفتُ رأي من ركبَ البحر رجاء لكسب دينار أو درهم، واستحسنتُ رأي من لا يقبل شهادة راكب بحر... هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه. فبينا أنا في ذلك، إذ التفت إليّ رحمه الله وقال: أما أحكي لك شيئاً؟ قلت: بلى. قال: في نفسي أنه متى ما

يسّر الله تعالى فتح بقية الساحل، قسّمت البلاد وأوصيت وودّعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم، أتبعهُم حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله، أو أموت». ويعقّب مرافقه على ما سمع منه فيقول: ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى، ولا أقوى منه نية في نصرة دين الله تعالى. ثم يوضح عبارته تلك بقوله: أما الشجاعة، فلأن مولانا ما يهوله أمر هذا البحر وهوله. وأما نصرة دين الله، فهو أن المولى ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص في الأرض، حتى تُطَهَّر جميع الأرض منهم. وحين يعبّر له عن إشفاقه عليه من المخاطرة بنفسه، وهو سور الإسلام ومنعته كما وصفه، يقول صلاح الدين: أنا أستفتيك، ما أشرفُ الميتات؟ فيقول مرافقه: الموت في سبيل الله. فيردّ صلاح الدين بالقول: «غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات»![٧٩].

ومن الصور المرسومة في ذهن الإنسان المسلم عن القائد المسلم، الوفاء والتسامح والتسامي عند الظفر والمقدرة. ولعل هذه الصورة قد ترسخت في وعي الإنسان المسلم منذ أيام الرسول عليه الصلاة والسلام، ولعلها قد تجلّتْ له بشكل سلوكي عملي عندما دخل الرسول مكة فاتحاً، بعد أن كان أهلها قد أخرجوه منها، إذ إن نوازع الانتقام التي قد تستبدّ بمن ظُلِم ثمّ أُديل له ممن ظلموه، آمّحَتْ من نفس النبيّ الكريم عند ظفره، كما هو معروف في كتب السيرة والتاريخ. ولذا فقد رأى الناس في تصرف صلاح الدين مع الفرنج بُعَيْدَ استرداده القدس، هذه الصورة الإسلامية للمسلم الذي يعفو عند المقدرة، فلا ينال أحداً من جند الفرنج أو أهل المدينة بأذى، حتى وهو يستذكر ذبح المسلمين الجماعي في ساحة الأقصى عندما دخل الفرنج المدينة قبل زهاء تسعين سنة، وقتلوا أهلها دونما تمييز. بل إن هذا التسامح وما واكبهُ من وفاء لأهل المدينة المفتوحة بما عاهدهم عليه، يتجاوز الإبقاء على الأرواح إلى التعفُّف عن أخذ الأموال، حتى عندما يكون ثمة وجه لأخذها، كما يتضح من رواية جمال

الدين ابن واصل عن بطرك القدس حين خرج بعد استعادة صلاح الدين للمدينة ومعه من أموال البيَع ما لا يعلمه إلا الله تعالى كما يقول ابن واصل، وكان له من المال مثل ذلك، فلم يعرض له صلاح الدين. وحين قيل له خذ ما معه لتقوي به المسلمين، أجاب بقوله: لا أغدر به. ولم يأخذ منه إلا ما كان قد فرضه على كل رجل عادي من الفرنج، وهو مبلغ عشرة دنانير. ثم سيّر مع البطرك والذين خرجوا معه من المدينة من يحميهم ويوصلهم إلى مدينة صور، التي أصبحت معقل الفرنج ومكان تجمعهم بعد هزيمتهم في حطين واستعادة ما كانوا يسيطرون عليه من مدن ومواقع في بلاد الشام(٨٠).

وإذا كان اجتماع الشجاعة والكرم من مقوّمات السيادة في المجتمع العربي القديم، ثم مما تعارفت عليه المجتمعات العربية الإسلامية اللاحقة، على الرغم مما تتطلبه هاتان الفضيلتان من احتمال المشقّة على حد قول المتنبي :ـ

لولا المشقة ساد الناس كلهمُ   الجود يفقر والإقدام قتّال(٨١)

فإن صلاح الدين قد اجتمعت في شخصه هاتان الخصلتان، كما تشهد بذلك المصادر القديمة. وإذ قد ذُكِر شيء في السطور السابقة عن شجاعته، فينبغي إيراد شيء هاهنا عن كرمه. ومن ذلك ما رواه كاتب سيرته من أنه كان يعطي وقت الضيق كما يعطي في حال السعة، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئه مُهِمّ، لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه. وكان يعطي فوق ما يؤمل الطالب، مع بَسْط في الوجه، وعدم مِنّة. وكانت عطاياه على حد قول معاصريه أكثر من أن تحصى عدداً أو تحدّد نوعاً. ويقول صاحب ديوانه: «قد تجارينا عطاياه، فحصرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكا لا غير، فكان عشرة آلاف فرس»(٨٢).

وقديما أقيمت في تراثنا رابطة بين الشجاعة والكرم على أسس عدّة.

ومن هذه الأسس، ما اتخذ سمة الاستقراء المنطقي، إذ قام على أنّ الشجاع الذي يسخو بنفسه، حريٌّ بأن يسخو بماله، أي أن يكون كريماً؛ وان غاية ما يبذله الإنسان الكريم، هو نفسه، أي أن يكون شجاعاً لا يخشى الموت. وقد عبّر أبو الطيب المتنبي عن هذا الاقتران بين الشجاعة والكرم بقوله في مدح سيف الدولة الحمداني :ـ

هو الشجاع يعدّ البخل من جُبُنٍ وهو الكريم يعد الجبْن من بَخَلِ[٨٣]

وقد تتخذ هذه الأسس سمة دينية حين تربط شجاعة الشجاع بإيمانه بأن عمر الإنسان مقدّر عند الله لا يحوّلهُ ولا يغيّرهُ تحرّز أو توقٍّ، وحين تربط كسب الإنسان بالرزق الذي قدّره الله له، لا تزيد منه ولا تنقصه سعة حيلة وزيادة سعي. فالمؤمن الواثق بالله وبما قدر له من عمر أو رزقٍ، لا ينبغي لذلك أن يخشى على حياته من موت غير محسوب، ولا على ما له من نقص أو ضياع غير مكتوب.

والذين رأوا في حكم نور الدين زنكي، ثم في حكم صلاح الدين الأيوبي، إحياء لعهد الخلفاء الراشدين، لا بدّ أنهم قد رأوا في صلاح الدين الأيوبي صورة معاصرة للخليفة الراشدي العظيم عمر بن الخطاب. وهم إذ يفعلون ذلك، فربما تمثلت لهم هذه الصورة في مظهرين اثنين: أولهما أنّ صلاح الدين أعاد القدس إلى حظيرة الإسلام، في حين أن الخليفة عمر، كان أول من أدخل المدينة المقدسة في حوزة الإسلام. ولم تغب هذه المقارنة عن معاصري صلاح الدين، كما يتبين من المادة الأدبية التي كتبت بعد استعادة صلاح الدين لمدينة القدس. وقد ينبغي أن نذكر هنا بعض المشابه التفصيلية بين الحدثين التاريخيين الكبيرين، إذ إن المدينة في عهد عمر قد استسلمت للخليفة بعد أن حوصرت فترة من الزمن، كما أنها استسلمت لصلاح الدين، بعد أن حوصرت فترة من الزمن كذلك. وثانيهما أن صلاح الدين قد سار إلى حد كبير على نهج الخليفة

الراشدي الثاني في زهده وتقشفه وتواضعه وعدله، كما يمكن أن يُستخلَص من سيرته. فقد قيل عنه إنه كان صابراً على مرّ العيش وخشونته، مع القدرة التامة على غير ذلك، احتساباً لله تعالى، وإنه كان متواضعاً عادلاً منصفاً، حتى لقد كانت طرّاحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القِصص - أي الشكاوى ومطالب الناس - وهو لا يتأثر لذلك. ولعلّ رواية بهاء الدين ابن شداد عن تجهيزه بعد وفاته تغني عن الكثير من التفصيل والتوضيح في الحديث عن زهده وتقشفه وعفة نفسه، وذلك إذ يقول قول شاهد عيان في حديثه عن وفاته: «. . . ثم اشتُغِل بتغسيله وتكفينه، فما مُكِّنّاأن ندخِل في تجهيزه ما قيمته حبّة واحدة إلا بالقرض، حتى في ثمن التبن الذي يُلَتّ به الطين. . . وأُخرج بعد صلاة الظهر في تابوت سُجّي بثوب فوط، وكان ذلك وما احتيج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حلٍّ عرفه». ويقول عنه في موضع آخر: «وأمّا صدقة النّفل، فأنها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال، فإنه ملك ومات ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، وجرما واحداً ذهباً صورياً، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قريةً ولا مزرعةً ولا شيئاً من أنواع الأملاك»[٨٤]. وكلمة جرم تعني في الغالب «دينار» والدينار الصوريّ ضربَ في مدينة صور أيام الدولة الفاطمية، وكان الدينار الصوري أقلّ قيمة من الدينار المصري[٨٥].

وحتى هذا الارتباط العاطفي بمدينة الإسراء الذي لمسناه عند الخليفة عمر، والذي تمثل في قدومه من أرض الحجاز إلى أرض فلسطين لتسلّم المدينة، وفي مشاركته الشخصية في إزالة المكرهات الصحية عن موقع الصخرة، ثم في إقامته أول مسجد فيها أذَّن فيه للصلاة بلال مؤذن الرسول، ثم في العهدة التي تنسب إليه وتحمل اسمه - هذا الارتباط العاطفي نفسه نجده عند صلاح الدين. وقد قال مؤرخ سيرته في ذلك: «وكان رحمةُ الله عليه عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال». ويدلّل

على ذلـك بحـديث فيه شيء من تفصيل عن المعـانـاة النفسية لصلاح الدين، عندما تخوف من أن ينتزع الفرنج بقيادة رتشارد قلب الأسد ملك الانجليز المدينة مرة أخرى عام ٥٨٨هـ، فيصف حال صلاح الدين يومي الخميس والجمعة من شهر جمادى الآخرة من تلك السنة بقوله: «. . . فلما قارب الصبح، أشفقتُ عليه، وخاطبتُه أن يستريح ساعة لعل العين تأخذ حظّها من النوم. وانصرفت عنه إلى داري، فما وصلت إلاّ والمؤذن قد أذّن، فأخذت في أسباب الوضوء، فلما فرغت إلاّ والصبح قد طلع، وكنت أصلّي الصبح معه رحمة الله عليه في غالب الأحوال. وقصدت إلى خدمته وهو يجدّد الوضوء، فصلينا، ثم قلت له. . . .، قد وقع لي واقع أعرضه، فأذن فيه. فقلت: المولى في اهتمامه وما قد حمَل نفسه من هذا الأمر مجتهد فيما هو فيه، وقد عجزت أسبابه الأرضية، فينبغي أن يرجع إلى الله تعالى. وهذا يوم الجمعة، وهو أبرك أيام الأسبوع، وفيه دعوة مستجابة في صحيح الأحاديث، ونحن في أبرك موضع نقدر أن نكون فيه في يومنا هذا. فالسلطان يغتسل للجمعة ويتصدق بشيء خفيةً، بحيث لا يُشعَر أنه منـك، وتصلّي بين الأذان والإقـامة ركعتين تناجي فيهما ربك، وتفوض مقـاليد أمـرك إليه، وتعترف بعجزك عما تصدّيت له، فلعل الله يرحمك ويستجيب دعاءك. ثم انفصلنا، فلما كان وقت الجمعة، صليت إلى جانبه في الأقصى، وصلى ركعتين، ورأيته ساجداً وهو يذكر كلمات، ودموعه تتقاطر على مصلاه رحمه الله، ثم انقضت الجمعة بخير»[٨٦].

وفي تشبّثه بالقدس وموضعها الخاص في نفسه، يقول رداً على رسالة رتشارد ملك الانجليز التي يطالب فيها بالقدس وما هو غربيّ نهر الأردن من الأرض: «هـو (القدس)، عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يُتصوَّر أن ننزل عنه، ولا نقدر على التلفّظ بذلك بين المسلمين. وأما البلاد، فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم عليها كان طارئاً لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت»[٨٧].

بقي أن نذكر في نهاية هذا الحديث عن القيادة والقائد أمراً ذا أهمية كبرى في نظرة الناس إلى من يقودهم: تلك هي ترجمة القائد العمليّة للمبادىء والأفكار والمواقف، ممثلة في النفس وفي الأقارب الأدنَيْن. ذلك لأنّ مثل هذه الترجمة العمليّة تعني أمرين اثنين في آنٍ معا: إيمان الإنسان بصحة ما يدعو إليه، وإمكان نقل النظرية والمبدأ إلى حيّز التنفيذ والواقع. ولذا فقد طُلِب من المؤمنين في التنزيل العزيز أن تكون أسوتهم رسول الله في شخصه، لا مبدأ تجريديّاً منفصلاً عن الإنسان الذي ينقله إلى حيز الواقع، وذلك في قوله تعالى: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً**﴾(٨٨). وإذا كنا قد رأينا في الصفحات السابقة أن قيادة صلاح الدين في السلم والحرب على السواء لم تكن مجرد توجيه نظري يأتي من علٍ، فلعل معرفتنا بإشراكه ولده الأفضل في معركة حطين في أول قتال يشهده، وكذلك إشراك ابن أخيه تقي الدين عمر في تلك المعركة قائداً لميمنة الجيش، ما يدلّل على أنّ من مميزات قيادة صلاح الدين أنه لم يكن ينأى بنفسه وبذويه عن المواقف الخطرة. وإذ نتتبع حروبه مع الفرنج، نجد أن أخاه الملك العادل وأبناءه وأبناء أخوته الآخرين كانوا ممن يشاركون في هذه الحروب، ويتعرضون للمخاطر نفسها التي كان يتعرض لها الجنود العاديون في معسكر المسلمين.

وحين نأخذ جميع هذه السمات القيادية بعين الاعتبار، لدى تقويمنا لقيادة صلاح الدين لجنده في حطين، نجد أن جميع مقومات القيادة الناجحة كانت قائمة في شخص هذا الرجل، وأن هذه المقومات، مضافاً إليها انضواء جميع الجند القادمين من أرض مصر والشام والجزيرة الفراتية تحت قيادته الموحدة الواحدة، كانت عاملاً أساسياً من عوامل النصر العظيم الذي أحرزه في تلك المعركة.

أصداء حطّين في الشعر المعاصر لها

منذ أيام الجاهليّة، كانت الأحداث الكبار في الجزيرة العربيّة تجد أصداءها في الشعر العربيّ، حتى عدّ الشعر الجاهلي من المصادر الأساسيّة لتاريخ العرب في جزيرتهم، ولا سيّما حين تكون هذه المصادر شحيحة أو نادرة أو غير موجودة، وكثيراً ما كانت. ولم ينته دور الشعر في تسجيل أحداث التاريخ بعد الإسلام، أو في مواكبته لهذه الأحداث، بدليل أن كبار المؤرخين المسلمين وكتّاب السير ظلوا عدة قرون يوردون مع الأخبار التاريخيّة التي تحتويها كتبهم شعراً متصلاً بهذه الأخبار، يواكب الحدث التاريخيّ، ويسجّل أصداءه في نفس الشاعر ونفوس معاصريه.

وإذا كان الفنّان في مصر القديمة، أو في بلاد الاغريق والرومان، ثم في أوروبا العصر الوسيط والعصر الحديث، قد وجد مسارب فنيّة عدّة لتخليد حدث من الأحداث أو لتصوير صداه في نفسه ونفوس معاصريه، فإن هذا الإنسان في الجزيرة العربيّة، ثم في البلاد التي انساح فيها العرب المسلمون بعد الفتوح الاسلاميّة الأولى، قد وجد في فنّ الكلمة ما كاد يكون مسرباً وحيداً للتعبير عن مشاعره وأحاسيسه القويّة تجاه الأحداث الكبار، ولا سيّما حين تنتظم هذه الكلمة مع كلمات أخر، في نسق بياني موسيقي متعارف عليه، هو الشعر. ولسنا نقول هنا بإخراج الفن الشعري من الفنون التي عرفها الناس في البلاد الأخرى آنفة الذكر، ولكن من المؤكد أن الفنان في تلك البلاد وجد في الصورة التي يرسمها، والتمثال الذي ينحته، والنصب الذي يقيمه، والنقش الذي يحفره على المعدن أو

الحجر، وفي الفنّ المسرحي والموسيقي، متنفسات متنوعة لأحاسيسه ومشاعره، مما لم يضطرّه لأن يحصُر التعبير عن هذه الأحاسيس والمشاعر في فن الكلمة دون غيره. وما على المرء إلّا أن يطوّف في البلاد المذكورة، حتى يرى في نتاج الفن القديم والحديث مصداقاً لهذه المقولة، ولا سيّما فيما يتعلّق بالمعارك الحاسمة في تاريخ تلك البلاد، إذ يرى هذه المعارك ماثلة في صورة ضخمة أو تمثال أو نقش أو نصب، لكي تستذكر الأجيال اللاحقة أعمال الأجيال السابقة، وتقدر لها ما قامت به وأنجزته.

وإذ تتباين الأعمال العظيمة في أنواعها وأنماطها في حياة الشعوب، فإن ما يرتبط منها بالحروب والمعارك الكبيرة، يظلّ ذا أثر خاصّ وذا صبغة خاصّة، وذلك نظراً لما يرتبط بالمعارك والحروب من عواطف قويّة وأحاسيس عنيفة، ولا سيّما أن منها ما تقرّر به مصير مجموعة بشريّة لقرون طويلة، أو ربّما للزمن اللاحق كلّه. ولا يخفى أن ما يرتبط بالحروب من مواجهة المشاركين فيها للخطر والموت، ومن صراع جماعي بين أمة وأمة، وحضارة وحضارة، من شأنه أن يستثير في النفوس أعنف المشاعر وأعمقها، إضافة إلى ما يرتبط بهذه الحروب من محاولة كلّ من الفريقين المتحاربين تأكيد الذات الجماعية للمجموعة التي يقاتل من أجلها. ولم يكن من قبيل المصادفة والحالة هذه، أن يحتلّ الشعر الملحمي أو الحماسي الذي يواكب الحروب ويسجل أصداءها في النفوس، مكانة خاصّة في شعر الأمم على اختلاف أجناسها ومواطنها، في شرق العالم وغربه على حدٍّ سواء.

على أن مواكبة الشعر للتاريخ ينبغي أن تفهم في إطار الحدود التي تميّز ما بين مهمّة الفنّان ومهمة المؤرّخ، إذ لكل منهما دور ينسجم مع مهمّته، وكلّ منهما يُحمَد أو يُنقَد تبعا لالتزامه بهذا الدور أو خروجه عنه. فإذا كان مما يحمد للمؤرخ أن ينفصل عن ذاته في روايته لأحداث التاريخ، وذلك بأن يكون موضوعيّا محايدا فيما يخطه قلمه، لا يتأثر بموقفه

من الأحداث والمشاركين فيها، فإن مما لا يقبل من الشاعر أن يكون شعره مجرّد رصد للأحداث ومواكبة محايدة لها. فالشاعر وهو من رجال الفنّ، يتخذ من الكلمة أداة يصوّر بها مشاعره ومشاعر أبناء مجتمعه، ويعبّر بها عن صدى الأحداث في نفسه ونفوس الناس من بني قومه. والفنّ لا بدّ أن يحمل سمة الذات، وإلّا انتفت عنه صفة الفنّ. وليس من قبيل المصادفة أن يُفرَّق في القيمة بين صورة أبدعتها ريشة فنّان، وصورة مماثلة في موضوعها ومناظرها التقطتها آلة التصوير الصمّاء، حتى وإنْ كان مستعمل تلك الآلة ممّن يحسنون اختيار مواقع التصوير وما يرتبط بها من تخيّر الزوايا والأوضاع وأماكن الأضواء والظلال. وإذا ما تقبّلنا تشبيه المادة التاريخية التي يخطّها مؤرخ محترف بالهيكل العظمي للأحداث، فإننا نتوقع أن يكون دور الشاعر الفنّان بثّ الحياة في هذا الهيكل، وذلك بأن يضيف إليه ما يحتاجه الجسد البشري من لحم ودم وأعصاب وأحاسيس وانفعالات ومشاعر. وبعبارة أخرى، فإننا نتوقّع أن تنبعث الحرارة من هذا الجسد، لكي يتكامل الهيكل العظمي مع مقوّمات الحياة الأخرى، أي لكي تتضام عناصر الحدث التاريخي، فتجتمع فيه إلى الحقائق ما تركه الحدث في نفوس الناس من أثر، إذ لا بدّ لكل حدث تاريخي، ولا سيّما ما كان ذا أهمية خاصّة، من آثار وأصداء في نفوس الناس المعاصرين له. وإذا كنا في زمننا هذا نتأثر بالأحداث الكبار في مجتمعنا وبيئتنا ونتفاعل معها: فلنا أن نفترض بحق، أن الناس قبلنا كانوا يتأثرون كذلك بأحداث مجتمعهم وبيئتهم، ولا سيّما تلك الأحداث الكبار التي كانت تمسّ وجودهم وأوطانهم، وأنماط معيشتهم ومصادر رزقهم وركائز حضارتهم.

من أجل ذلك، لا نرى وجهاً لنقد يوجه إلى مؤرخينا القدامى، الذين كانوا يمزجون الرواية التاريخيّة للأحداث بما قيل فيها من شعر، باعتبار أن ذلك المزج، كما يرى الناقدون، نوع من الخلط بين فرعين من فروع الثقافة والمعرفة. بل إننا نذهب إلى حدّ القول إن ما فعله الأجداد من

مؤرخي العرب والمسلمين هو ما ينبغي أن يفعل، حين أضافوا إلى الرواية التاريخيّة لأحداث عصرهم وعصور من سبقوهم، ما تركه الحدث التاريخي من أثر في النفوس، دون أن يروا أن الزواية التاريخيّة تغني عن المادة الشعريّة، أو أن مادة الشعر يمكن أن تحلّ محل الرواية التاريخيّة.

ولدى نظر كاتب هذه السطور في الشعر الذي قيل في حطين وما تمخضت عنه تلك المعركة من نتائج، وهو نظر لم يبلغ أبداً حدّ الاستقصاء الكلي، وجد أن هذا الشعر يمكن أن يندرج تحت أربعة عناصر كبيرة، مع تداخل لا بدّ منه بين هذه العناصر، ومع تلازم لا بدّ منه كذلك مع رسالة العمل الفنّي، وهي إحداث التأثير في النفوس، مع كل ما يتطلبه ذلك من مقوّمات التأثير وعوامله وأدواته من أخيلة وصور بيانيّة وتعامُلٍ خاصّ مع مفردات اللغة وتركيباتها.

أما هذه العناصر الأربعة فهي :-

١ . مواكبة الشعر للأحداث ورصدها.
٢ . تمجيد الشخصيّة المحوريّة في معركة حطين: شخصية صلاح الدين الأيوبي.
٣ . التعبير عن أحاسيس النشوة الممتزجة بالدهشة.
٤ . الاستحثاث على استغلال النصر واستئصال الوجود الفرنجي من البلاد.

أما بالنسبة إلى العنصر الأول، فما على الدارس إلا أن يحوّل المادة الشعرية إلى رواية نثريّة مجرّدة من الأساليب البيانيّة، لكي يتبين أنه ما من مَعْلَم من المعالم الكبيرة في أحداث حطين وما تمخّضت عنه إلاّ وقد تحدّث عنه ورصده شعر ذلك العصر. ومن ذلك قصيدة سينيّة للعماد الأصفهاني، وهو معاصر لأحداث المعركة، وربما كانت له صلة واقعيّة بها، إضافة إلى صلته الخاصة بصلاح الدين، باعتباره واحداً من أبرز

كتّابه . ففي هذه القصيدة نجد تحديداً لموقع المعركة، وحديثاً حماسياً عن هزيمة العدو، وذِكْراً لأَسْر ملوك الفرنج ووقوع أعداد كبيرة منهم في أيدي المسلمين، وتسجيلاً لمقتل أمير الكرك البرنس أرناط بعد أن وقع في الأسر، ثم حديثاً محدّداً عن المدن التي تهاوت وسقطت بأيدي المسلمين بعد معركة حطين، مع إشارة محدّدة كذلك إلى تجمّع الصليبيين في مدينة صور ودعوة مثيرة إلى القضاء عليهم . يقول العماد مخاطباً صلاح الدين :ـ

سحبْتَ على الأردنّ ردنا من القنا ردينـيّةً ملدا وخطيّةً ملسا
حططتَ على حطين قَدْرَ ملوكهم ولم تبقِ من أجناس كفرهِمُ جنسا

★ ★ ★ ★ ★

بواقعةٍ رجّتْ بها الأرضُ جيشهم دمارا كما بُسّتْ جبالُهُمُ بسّا

★ ★ ★ ★ ★

تقاد بِدَأْماءِ الدِّماء ملوكُهم أسارى كسفن اليمّ لطَّتْ بها القلسا
سبايا بلاد الله مملوءة بها وقد شُريتْ بخسا وقد عُرضت نخسا
يطاف بها الأسواق لا راغب لها لكثرتها كم كثرةٍ توجب الوَكسا
شكا يَبَساً رأسُ البرنس الذي به تندّى حسامُ حاسم ذلك اليَبْسا
حسادمَهُ ماضي الغرار لغدره وما كان لولا غدرُهُ دمُه يحسى

★ ★ ★ ★ ★

وقد طاب ريّانا على طبريّةٍ فيا طيبَها ريّا ويا حُسنَها مرسى
وعكا، وما عكّا فقد كان فتحها لأجلائهم عن مدْن ساحلهمْ كنسا
وصيدا وبيروتٌ وتبنينُ كلها بسيفك ألفى أنفُها الرغم والتعسا
ويافا وأرسوفٌ ويُبنى وغزّةٌ تخذتَ بها بين الطّلى والظّبى عرسا
وفي عسقلانَ الكفرُ ذلّ بملككم فمنظره بل أمره اربدّ وارجسّا
وصار بصورٍ عصبةٌ يرقبونكم فلا تبطئوا عنها وحُسّوُهُمُ حَسّا(٨٩)

ولم تكن سينيّة العماد هذه هي القصيدة الوحيدة التي نظمها في

حطين، وسجل فيها أحداثها، إذ إن له قصائد أخرى، منها رائيّة تحدّث فيها عن أسر ملك القدس جي دي لوزنان، وعن ما حلّ بفرسان الاسبتاريّة والـداويّة The Hospitalers and The Templars ، وحـدّد فيهـا يوم المعـركـة: السبت، ومكانها، وأشار إلى مقتل أمير الكرك وما انتاب ملك القدس من فزع وجـزع لدى مشاهدته مقتل زميله في الأسر. بل إن العماد أورد في قصيدته هذه خبر إرسال أسرى الفرنج الكبار إلى دمشق ووقوع الصليب الأصلي أو صليب الصلبوت في أيدي المسلمين بعد هزيمة الفرنج كما يتضح من الأبيات التالية المأخوذة من قصيدته المذكورة:ـ

مالي أرى ملك الافـرنج في قفص ‏‏‏   أين القـواضبُ والعسّـالـةُ السُّمُـر؟

والأسبتـار إلى الـداويّة التـأمـوا   كأنهم سدُّ يأجـوجٍ إذا استجـروا

يا وقعـة التـل ما أبقيتِ من عجَبٍ   جحـافـل لم يفت من جمعها بشر

ويا ضحى السبت ما للقـوم قد سبتوا   تهوّدوا أم بكأس الطعن قد سكروا؟

ويا ضريحَ شعـيب ما لهم جَثَمـوا   كَمَـدْينٍ أم لقُـوا رَجْفـاً بما كفروا؟

حطّوا بحـطين مُلْكـاً كافياً عجبا   في ساعـةٍ زال ذاك الملكُ والقـدر

أهـوى إليهم صلاح الـدين مفترسا   وهـو الغضنفـر أعـدى ظُفْره الظَّفَرُ

أملى عليهم فصـاروا وسط كفّتـه   كسـرب طير حواه القـانص الـذكر

وأنـجـز الله للسـلطان موعـده   ونَـذْرَه في كفـورٍ دينُـهُ الـبَـطَر

وعـاين الملكُ الأبـرنسَ في دمه   فمـات حيًّا وحـيًّا وهـو يعتـذرُ

رأى مليكـا ملوكَ الأرض تتبـعـه   والنجمُ يخـدمـه والشمسُ والقمـر

★ ★ ★ ★ ★

بينـا سبـاياه تُجلى في دمشق إذا   مَلْكُ الفـرنـج مع الأتـراك محتَجَر

إزاءه زعـمـاء الـسـاحـلين معـا   مصفّـدين بحبـل القهـر قد أُسـروا

يتـلوهُـمُ صلبـوتٌ سيق منتـكسـاً   وحـولـه كل قسـيس له زُبُـر(٩٠)

ويرصد شاعر آخر معاصر لأحداث حطين، وهو فتيان الشاغوري، المتـوفّى سنـة ٦١٥هـ، ضخـامـة عدد القتلى والأسـرى في الجـانب

الفرنجيّ، ويتعرض حتى لبعض أسماء الأسرى الكبار الذين وقعوا في أيدي المسلمين، مع تحريف طفيف في رسم الاسم المورَد، وذلك إذ يقول :ـ

فَمَنِ الذي من جيشهم لم يُخْتَرَمْ ومن الذي من جمعهم لم يؤسر؟
حتى لقد بيعتْ عقائلُ أُرهقتْ بالسبي بالثمن الأخس الأحقر
سقت المماليكُ الكرام ملوكهم كأسا به سقت اللئيم الهَنْفَري
أغلى الأداهم من أسرتَ وأرخصتْ بيضُ الصوارم من نهاب المعسكر(٩١)

والهنفري الذي أورده الشاعر اسمه في أبياته هو همفري سيد تورون Humphry IV, Lord of Toron وفي هذه القصيدة نفسها، يقدّم لنا الشاعر صورة لا تختلف عن رواية المؤرخين إلا في طريقة العرض والتعبير، عن تعرض جثث القتلى من الفرنج لانتهاش سباع البر وجوارح الطيور، وعن العطش الشديد الذي تعرض له جيشهم بسبب حجب الماء في بحيرة طبريا عنهم قبيل المعركة. يقول هذا الشاعر :ـ

فالقوم نَهْبٌ للسباع تنوشهم من كل ذي ناب وصاحب مِنْسر

★★★★★

ماتوا بغُلَّتهم وأروى منهم بيضَ الصوارم بالدم المثعنجر
نَهبتْ عفاة الطير من حَدَقٍ بها زرق فصوصاً من نفيس الجوهر(٩٢)

وإذ يورد الشاعر الحكيم أبو الفضل الجلياني خبر ملحمة حطين، فإنه يضيف إلى ماذكره غيره من الشعراء عن الأسرى ومقتل أمير الكرك وجزع ملك القدس الأسير لمنظر القتل، قصة هرب الكونت ريموند صاحب طرابلس من المعركة (القمص)، ثم موته المفاجىء بعد ذلك في البلد التي كان يسيطر عليها. ويتعجب الشاعر في النهاية من هزيمة جيش تعداده خمسون ألف مقاتل مدجّج، أمام جيش لم يكن في مثل عددهم وعدتهم :ـ

ووقعة يوم التلّ إذ قُبِضتْ به جبابرة الافرنج حيرى وشرّدا

عليهم من البلرى سرادق ذلّةٍ ومن ذلّ ماتت نفسه فتقيّدا
ترى المنسر الديويّ يلقي سلاحه وينساق ما بين السبايا ملهّدا
يباعون أسرابا شرائح أحبل كشلّة عصفور من الريش جرّدا

★★★★★

ألم تر للسلطان صدّق نذرَهُ دمُ الغادر الابرنس فاقتيد أربدا
وباشره بالقتل وسط جنابه وعايَنَهُ الكندُ المليكُ فأرعدا
وضاقت بأرض التُّمَّص الأرضُ مهربا فأدركه الموت المفاجيء مُكْمَدا
وما طرق الأسماع من عهد آدم كملحمة التلّ التي تلّت العدا
أتوا وادياً ما زال ينفي خبائثاً ويصفي بعُقبى الدار طائفة الهدى
ومن عَجَبٍ خمسون ألف مقاتل سبتهُمْ جيوش ليس فيها من ارتدى(٩٣)

أما الشاعر المصري، ابن سناء الملك، المتوفى سنة ٦٠٨هـ، فإنه يرصد في قصيدته النونيّة التي نظمها بعد حطين ضخامة جيوش الفرنج، وثقل أسلحتهم السابغة وسقوط الصليب الأصلي في أيدي المسلمين، وقصة أسر ملك القدس ومقتل أمير الكرك على يد صلاح الدين، وذلك إذ يقول في قصيدته هذه مخاطباً صلاح الدين: ـ

حملوا كالجبال عُظْماً ولكن جعلتها حمْلات خيلك عِهْنا
جمعوا كيدهم وجاؤوك أركانا فمن قدّ فارساً هدّ ركنا
لم تلاق الجيوش منهم ولكنك لاقيتَهم بلاداً ومدنا
كل من يحمل الحديد له ثوبا وتاجا وطيلساناً وردنا

★ ★ ★ ★ ★

أشجع القوم فيهم جاعل الدرع هروبا والفرار مِجنّا

★ ★ ★ ★ ★

ظلّ معبودهم لديك أسيرا مستضاماً فاجعل له النار سجنا

★ ★ ★ ★ ★

وحـــوى الأســـر كلَّ مَلْكٍ يظن الـــدهـــر يفـنـى ومـلكـــه ليس يفنى

★ ★ ★ ★ ★

والــمـليك الـعـــظيم فيهـم أسير يتـشـنّـى في أدهـم يتـشـنّـى
والـلعـين الأبــرنس أصبــح مذبــوحــــا تمنّى لم يعــدم اليوم يُمْنـا
أنـــت ذَكَّـيْتَــه فوفّـيْتَ نَذْرا كنت قدّمتــه فجـوزيت حسنـا[٩٤]

★ ★ ★ ★ ★

وإذ ننتقل إلى العنصر الثاني من العناصر الأربعة الكبيرة التي يمكن أن ينـدرج تحتهـا الشعـر المعـاصر لمعركة حطين، وهو الشعر الخاص بتمجيد الشخصيّة المحـوريّة في المعـركـة، أي شخصية صلاح الدين الأيوبيّ، فإننـا ننتقل إلى عنصر لا بدّ من وجوده في الشعر الحربيّ، أو الشعر الملحمي، في كل زمان ومكان. وما على المرء إلا أن يراجع شعر الملاحم في لغات الأمم المختلفة، لكي يرى أن الشخصيّة المحوريّة، أو شخصية البطل، قد إحتلّت مكان الصدارة في هذا الشعر. هكذا كان الأمر في ملحمتي هوميروس اليونانيّتين، الألياذة والأوديسي، اللتين مجّد الشاعر فيهما الشجاعة والحكمة، وفي ملحمة الأنيادة الرومانية التي مجّد فيها شاعر الرومان الكبير فيرجيل Virgil الفضائل الرومانية، وفي ملحمة اوس لوسيداس Os Lusidas البـرتغاليّة التي عرض فيها الشاعر كانويس Canoes أفضل ما للبرتغاليين من خصال؛ والشيء نفسه يمكن أن يقال في أغنية رولاند الفرنسية Chanson de Roland، وفي ملحمة الشاهنامة الفارسيّة التي نظمها الفردوسي، وملحمتي رامايانا وماها بهاراتا الهنديّتين، وأغنية السيِّد الأسبــانيّة El Cantar de Mio Cid [٩٥]، وغير هذه من المــلاحم التي كتبت بالأنجليزيّة أو الإيطاليّة أو الفنلنديّة، أو بغير هذه اللغات.

غير أن شخصيّة البـطل في الشعـر الـذي نظم في حطين، ثم في استعادة القدس، تختلف في كثير من الأمور عن شخصيّة البطل التقليدية

في الملاحم الشعريّة التي كتبت بلغات أجنبيّة قديمة أو حديثة. ومن هذه الأمور، أن البطل في تلك الملاحم ينتمي في الغالب إلى عهد سحيق موغل في القدم، لم تُسقَطْ عليه أضواء التاريخ الساطعة الكاشفة، وهو لذلك كثيراً ما كانت تنسب إليه أعمال خارقة تتحدّى القوانين الطبيعيّة التي تحكم طبيعة الإنسان وقدراته البشريّة. بل قد يصل الأمر ببطل تلك الملاحم إلى أن يتعامل مع الآلهة، كما هي الحال في ملحمتي هوميروس، ويكون بينه وبين هؤلاء الآلهة ما يكون عادة بين بني البشر من توادّ وتعاطف، أو خصام وتنافر. وبذا يتحول البطل في هذه الملاحم إلى شخصيّة أسطورية، بكل ما تتّسم به الأساطير من سمات ومعالم. بل إن مكان البطل في الشعر الملحمي الأجنبي، قد يكون هو الآخر غير محدّد وغير مألوف أو معروف، إذ إنه كثيراً ما يكون في العالم النائي المجهول الذي هو أقرب إلى عالم الخيال منه إلى عالم الواقع.

وعلى غير ذلك كانت شخصيّة بطل حطين ـ صلاح الدين الأيوبيّ، في الشعر المعاصر له. صحيح أن صلاح الدين في هذا الشعر كان يشترك مع أبطال الملاحم في تجاوزه دائرة «الأنا» أو دائرة «الذات» إلى دائرة أوسع، هي دائرة المسلمين حيثما كانوا، ودائرة المسلمين في مصر والشام على وجه الخصوص، ولكن ذلك لم يخرجه أبداً من دائرة الواقع التاريخي، سواء فيما يتعلّق بالزمان أو المكان أو تتابع الأحداث بالصورة الطبيعيّة المألوفة لدى بني البشر، دونما تحدٍّ لأية قاعدة كونيّة أو قانون طبيعي.

وإذ نجد في هذا الشعر حديثاً متكرّراً عن رعاية الله للبطل، فإن هذا الحديث لا يخرج في فحواه عن مقتضى عقيدة الإسلام وشريعته. ذلك لأن رعاية الله للإنسان المسلم بموجب هذه العقيدة، رهن بالتزام هذا الإنسان بما شرعه الله له، وبالتزامه بما يرضي الله. ولن يجد الدارس لآيات القرآن الكريم أو لأحاديث رسول الإسلام صلوات الله عليه، أو للتاريخ الإسلامي

أيما إشارة لرعاية إلهية غير مرتبطة بجدّ الإنسان وسلوكه السبيل السويّ في عمله، وفي إطار قدرة الإنسان وطاقته. ويكفي أن نستذكر ما حلّ بالمسلمين الذين كانوا تحت قيادة الرسول نفسه في أُحُد، ثم في حُنَيْن، لكي نتبيّن أن خروج المسلم عن ما أمر به الله تنبني عليه نتائج خطيرة، حتى ولو كان هذا الإنسان أو المجموعة التي ينتمي إليها على حق من حيث المبدأ العام الذي يعمل هو، أو تعمل تلك المجموعة بموجبه. ويكفي أن نستذكر على سبيل المثال لا الحصر بعضاً من آيات القرآن الكريم التي تربط نصر المسلمين بالتزامات معيّنة، لكي نستبين أن رعاية الله للإنسان المسلم رعاية مشروطة بقواعد وأنماط سلوكيّة معيّنة. ففي التنزيل العزيز ورد قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنْ تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم**﴾[٩٦]. وقوله: ﴿**وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين**﴾[٩٧]، وقوله: ﴿**إن الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنّهم بنيان مرصوص**﴾[٩٨].

وبذا فإن الرعاية الإلهية لصلاح الدين في حطين، كانت كما رأى الشعراء، جزاءَ عدلٍ على أداء بشري سليم، يصدر عن عقيدة سليمة ويتوجه إلى هدف سليم. وفي ما مضى من صفحات هذه الدراسة، ما يبيّن ما ذهبنا إليه حول أداء صلاح الدين البشريّ، حاكماً وقائداً عسكرياً.

لا عجب إذن، أن يقدّم لنا شعراء ذلك العصر صلاح الدين الأيوبي، في إطار الفضائل الإسلامية المتعارف عليها منذ أن وجد الإسلام التاريخيّ، ومنذ أن تمثلت هذه الفضائل في حكام الإسلام وقادته، مع مراعاة هؤلاء الشعراء للموقع الذي يحتلّه صلاح الدين حاكماً وقائداً عسكرياً، ومع استذكارهم أن تجسّد هذه الفضائل في شخص صلاح الدين إنما كان إحياء لآمال وتطلّعات كادت تذوي وتتلاشى بعد أن تعاقب على حكم المسلمين لعدّة قرون رجال عرفوا هذه الفضائل تاريخا ونظريّة، دون أن يمارسوها سلوكا وواقعا. من أجل ذلك، تجاوز صلاح الدين في

نظر هؤلاء الشعراء موقع الحاكم المسلم المحلي، لكي يصبح رمزاً من رموز الإسلام الشامل، حتى ولو أن الرمز الرسمي للإسلام كان يتمثل إذ ذاك في الخليفة العباسي في بغداد، الذي كان صلاح الدين تابعاً له من الناحيتين الشرعيّة والرسمية. ولعل النصوص الشعرية الموردة فيما يلي من صفحات وسطور توضح هذا الذي ذهبنا إليه، ولا سيما أن هذه المختارات هي لشعراء من مواطن مختلفة تقع في مشرق العالم الإسلامي ومغربه على السواء.

يقدّم لنا الشاعر فتيان الشاغوري صلاح الدين حاكما أقام ملكه على قاعدة من القوّة والعدل والإحسان، وقدّم للإسلام ما لا يمكن جحوده ونكرانه، وكسب من المعارك ما لم يعرف له نظير. وهو ينتصر بالرعب الذي يدبّ في قلوب أعدائه، قبل أن ينتصر بجيشه، وقد استطاع استعادة القدس من المحتلّين الغاصبين، وهو إنسان كتب الله له حظاً وسعادة في الدنيا، يشتري ثناء الناس ببذله وكرمه، وقد حقّق بفتحه القدس نصرا دونه كل نصر، واستحق بنصرته للإسلام ثناء جميع الناس، إذ إنه قضى على أعداء الإسلام واستعاد له البهجة والإشراق بعد أن استردّ الأقصى من أيدي الأعداء، وبذا ضمّ إلى الحجر الأسود في الكعبة الصخرة المشرّفة في القدس، وهو بذلك قد أنجز ما لم تستطع ملوك المسلمين من قبله إنجاز جزء منه، لأن الله تعالى فضّله على أولئك الملوك، وبذا فإن أفعال الملوك تتضاءل عندما توازن بأفعاله، وهو بهذا يستحق دعاء المسلمين له بالبقاء، لأنه جلب لهم الأمن، وبثّ فيهم الخير، وأمر فيهم بالمعروف ونهى عن المنكر، دون أن يساوره شيء من كِبْر، إذ بقي مع كل ما أنجزه متواضعاً لله، بعد أن أخمد غرور المتكبرين وغلواءهم. يقول الشاغوري :ـ

تُبْنى الممالكُ بالوشيج الأسمر والبيض تلمع في العجاج الأكدر
والعدلِ والإحسان والمعروف مملوء الحياض لموسر ولمعسر
كفعال مولانا صلاح الدين ذي المجد المغدّق والعطاء الكوثر

أهــدى صلاح الـدين للإسـلام إذ آردى قبـيلَ الـكـفـر ما لم يُكْفر
ربّ المــلاحـــــم لم يؤرخْ مثلهــا العلمــاء قِدْمـا في قديم الأعصـر

★★★★★

يغــزو الملوكَ الـرعبُ قبـل مسيره في عسكـر أفتِـكْ به من عسكـر

★★★★★

راياتــه صفــرا تَرِدْن وتـنـشـنـي حُمْــرا تمـجّ نجيع آل الأصفـر
لِمَ لَمْ تدِنْ شوس الـملوك له وقـد ملك السـواحـل في ثلاثـة أشهـر
واستنقــذ البيت المقــدّس عنــوة من كل ذي نَجَسٍ بكــل مُطَهّــر

★★★★★

والـسـبعــة الأفـلاك تخـدم جَدَّهُ حتى قُوى كيوانِـهــا والـمشتــري
لـم يألُ مشـتــريَ الثنــاء بمــالــه حُسْنـا فنعم المشترى والمشتـري

★★★★★

فليهـنِــهِ الفتــحُ الــذي سدّت به عن ملكــه أبــواب غدر الأدهــر
فتــح تطأطــأ كل فتــح دونــه والـشـمس تكسِـف كلّ جسم نَيِّر
يا ناصــرَ الإســلام فُزْتَ بمــوردٍ حَسَنِ الثنـا في العـالمين ومصـدر

★★★★★

فلقــد وأدتَ الـشــرك يوم لقيتهم وغــدوت للإســلام عين المُنْشِــر
وأريتَـهــم يوم الـتـقى الجمعــان بالبيت المقــدّس هول يوم المحشــر
ورددتَ دين الله بعــد قطوبــه بالمسجـد الأقصى بوجــه مسفـر
وأعــدْتَ ما أبــداه قبـلك فاتحــا عمــرُ فأنت شريكُــهُ في المتجـر
حتى جمعت لمعشــر الإســلام بين الصخــرة العـظمىٰ وبين المَشْعَـر
فلصخـرة البيت المقـدّس كفؤهـا الحجـر المفضّـلُ عنـد أفضـل معشر

★★★★★

مضتِ الملوكُ ولم تنـل عُشْـرَ الـذي أوتــيتَــه من مَنْجَــح أو مَفْـخَـر
وبــذاك آثــرك الآلــهُ عليهــم يا مؤثــراً أوزعــتَ شكـر الـمؤثـر

★★★★★

واستعـظَمَ الأخبـارَ عنـك معـاشـرٌ فاستصغـروا ما استعـظموا بالمخبر
ما كلّ مُلْكٍ عنـدمـا أوتـيتَـهُ إلا قُلامَـةُ بعض ظُفْـر الخنصـر
لا يَعْـدَمَـنْـك المسلمون فكم يدٍ أولـيتَـهُـم معـروفَـهـا لم ينـكَـر
أمّـنْـتَ سربَـهُـمُ وصُـنْـتَ حريمَهُم ودرأت عنـهمْ قاصمـات الأظهـر
لم تخـلُ سمعـاً من هنـاء مُهنيء للمـسـلمين ومـن سمـاع مبشّـر
مـا إن رآك الله إلاّ آمـرا فيهـم بمعـروف ومُـنْكِـر مُنْكَـر
متـواضـعـاً لله جـلّ جلالـه ولـك اضمحلّت سطوة المتكبّر(٩٩)

ويرى الشـاعـر أبو الحسن الساعاتي في استعادة مدينة طبرية قبيل معركة حطين، ثم في أخذ قلعتها بعد المعركة، فتحا أدخل السرور في قلوب المؤمنين، ويرى في صلاح الدين مجاهدا في سبيل الله لا في سبيل السمعة والظهور. ويربط الشاعر ربطا عاطفيا بقصد الاستثارة الدينيّة ما بين المدينة المستعادة ومدينتي القدس ومكّة، لما لهاتين الأخيرتين من مكانة خاصّة في نفوس المسلمين، ثم يحاول في ختام قصيدته أن يقدّم ممدوحَهُ صلاح الدين في نطاق عقيدة الإسلام وتاريخ الأنبياء والرسل، من أجل أن يرى الناس فيه امتداداً لشخصيّاتِ لها مكانة خاصّة في نفوس المسلمين :ـ

جلتْ عزَمـاتُـكَ الفتـح المبينـا فقـد قرّتْ عيون الـمـؤمـنينـا
رَدَدْتَ أخـيذة الإسـلام لمّـا غدا صرف القضـاء بهـا ضمينـا
وهـان بك الصليب وكـان قِدْمـاً يعـزّ على العـوالي أن يهـونـا
يقـاتـل كل ذي مُلْك ريـاءً وأنـتَ تقـاتـل الأعـداء دينـا
★★★★★
ومـا طبـريّةٌ إلاّ هَـدِيٌّ ترفَّـعُ عن أكُـفِّ الـلامـسينـا
★★★★★
قضـيت فريضـة الإسـلام منهـا وصـدّقـت الأمـاني والـظنـونـا
تهـزّ معـاطف القـدس ابتهـاجـاً وتُـرضي عنـك مكّـةَ والحجـونـا

فلو أن الجهاد يطيق نطقا لنادتك ادخلوها آمنينا

★★★★★

لقد جرّدت عزماً ناصريًّا يحدّث عن سناه طور سينا
فكنت كيوسفَ الصدِّيقِ حقًّا له هوت الكواكب ساجدينا
لقد أَتْعَبْتَ من طلب المعالي وحاول أن يسوس المسلمينا
وان تَكُ آخراً، وخلاكَ ذمٌّ فإن محمداً في الآخرينا(١٠٠)

أما أبو علي الحسن بن عليّ العراقي، فإنه يربط ما بين انتصار صلاح الدين في حطين، وبين فتوح الأنبياء، ولذا فهو يرى أن ممدوحه مؤيّد بملائكة الله يعينونه وينصرونه، بعد أن استطاع أن يوقع ملوك الفرنج الأشدّاء في يده، وبعد أن كان هؤلاء الملوك مصدر رعب شديد لحكام المسلمين من قبل. وفي معرض إشادته ببطل حطين وفاتح القدس، يستذكر الشاعر أن المدينة المقدّسة وغيرها من بلاد الإسلام المحتلّة قد لبثت تسعين سنة تستصرخ المسلمين من أجل إغاثتها دونما سامع أو مبصر، حتى إذا ما أتى صلاح الدين، استطاع أن يصطلم الغزاة المحتلين في برهة قصيرة بعون من الله، ولذا فهو متفرّد بأفعاله عن جميع الملوك، ولو أن فتوحاته حدثت في زمن رسول الإسلام صلوات الله عليه، لتنزلت بها آيات في القرآن الكريم :-

يقول في مطلع قصيدته :-

جند السماء لهذا الملك أعوان من شكّ فيه فهذا الفتح برهان

ثم يقول :-

هذي الفتوح فتوح الأنبياء وما لها سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصِّيدُ في يده صَيداً وما ضعفوا يوما ولا هانوا
كم من فحول ملوك غودروا وهم خوف الفرنجة وِلدانٌ ونِسوان

★★★★★

تســعــون عامــاً بلاد الله تصــرخ والإســلام أنــصــارُهُ صُمٌّ وعــمــيان
فالآن لبّى صلاح الــدين دعــوتهم   بأمــر من هو للمــعــوان معــوان

★★★★★

في نصف شهر غدا للملك مُصْطَلِماً   فطُهِّــرَتْ منــه أقــطار وبــلدان

★★★★★

وَعَــدٍّ عمّــن سواه فالفــرنجــة لم   يُبِــدْهُمُ من ملوك الأرض إنســان
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد   تنــزّلــت فيه آيات وقــرآن(١٠١)

★ ★ ★ ★ ★

ويرى محمد بن أسعد بن علي بن معمر الحلبي الجواني المتوفّىٰ سنة ٥٨٨هـ في انتصار صلاح الدين في حطين، وما تلا ذلك الانتصار من استعادة لمدينة القدس، عملا أنجز في خدمة الإسلام ورسوله، ويرى في صلاح الـدين مشابِهَ من النبي يوسف الصديق، ومن الخلفاء الراشدين الثلاثة: عمر وعثمان وعلي. أما وجه الشبه بين صلاح الدين والنبي يوسف، فهو كما نرى في تشابه الاسمين، إذ إن اسم صلاح الدين هو يوسف، وصلاح الدين لقبه كما هو معروف، وكذلك ما كان من علاقة مشتركة للرجلين بمصر في سابق الزمان وحاضره. وأما وجه الشبه مع عمر بن الخطاب، فهو أن الخليفة الثاني فتحت له القدس بعد أن كان يحكمها البيزنطيون ودخلت في ديار الإسلام لأول مرة عام ١٥ للهجرة، في حين أن صلاح الدين أعاد فتحها حين انتزعها من الفرنج وأدخلها ثانية في ديار الإسلام. وشبّه الشاعر صلاح الدين بعثمان بن عفان، انطلاقا من أن صلاح الدين قد التزم بشريعة القرآن الذي جمعه عثمان رضي الله عنه. وأما وجه الشبه بين صلاح الدين وعلي بن أبي طالب، فهو بلاء كل منهما في معارك الإسلام وحروبه. ويذكّر الشاعر بحقيقة تاريخية، حين يربط معارك صلاح الدين بأيام الجمعة، إذ المعروف عن صلاح الدين أنه كان يتخيّر أيام الجمع لمعاركه من أجل الإفادة من دعاء الخطباء له في خطب

صلاة الجمعة(١٠٢). إلا أن الشاعر يقدّم لنا هذه الحقيقة التاريخيّة في إطار فنّه الشعريّ البيانيّ، لكي تكون أشد إثارة وتأثيراً. يقول الجواني :ـ

من كان هذا فتحه لمحمد ماذا يقال له وماذا يُذكر؟
يا يوسف الصدِّيقُ أنت لفتحها فاروقُها عمرُ الإمامُ الأطهر
ولأنتَ عثمانُ الشريعةِ بعده ولأنتَ في نصر النبوّة حيدرُ
غاراته جُمَعٌ فإنْ خَطَبَتْ له فيها السيوف فكل هام منبر(١٠٣)

ومن مدينة نابلس، حيث ثار المسلمون في المدينة وما جاورها على الفرنج وطردوهم من المنطقة بعد وقعة حطّين(١٠٤)، نسمع صوتاً لأحد أبنائها يشيد بالقائد المنتصر، فيرى فيه مالك الأرض وقائم الزمان الذي استولى على مدن الساحل الشاميّ وجعل من الفرنج بعد كسرهم عبرة لمن يعتبر، والذي بدّل أمن الغُزاة ذُعراً وخوفاً بعد أن انتزع مواقعهم ومعاقلهم. يقول الرشيد النابلسي :ـ

يا مالك الأرض مهّدها فما أحدٌ سواك من قائم للمهد ينتظر
ما اخضرّ هذا الطراز الساحلي ثَمَراً إلّا لتعلو به أعلامك الصُّفُر
أضحى بنو الأصفر الأنكاس موعظة فيها لأعدائك الآيات والنذر
صاروا حديثاً وكانوا قبلُ حادثةً على الورى يتّقيها البدو والحضر
سلبتَهُمْ دولة الدنيا وعيشتها حتى لقد ضجرَتْ من وفدهم سَقَر
هذا الذي سلب الأفرنج دولتهم ومُلْكَهم يا ملوك الأرض فاعتبروا
مراكزٌ ما اختطاها الخوف مذ مائة عاما ولا ريع أهلوها ولا ذُعروا
ولا أصرّح أسماء البلاد فقد أسهبتُ والقائل المنطيق يختصر
يُغنيك إجمال قولي عن مُفَصَّلَةٍ في لفظة البحر معنى تحته الدُّرَر(١٠٥)

★★★★★

وإذ نسمع صوتاً يأتي من الأندلس، من أقصى مغرب العالم الإسلامي، يشيد ببطل حطين، فإننا ندرك أن صلاح الدين لم يعد حاكماً

أو قائداً محليًّا يروّج له من يعيشون في دولته، بل شخصيّة إسلاميّة تستقطب الإعجاب من أقصى مشرق العالم الإسلامي إلى أقصى مغربه. وهذا الصوت الأندلسي نفسه، شأنه في ذلك شأن أصوات إسلاميّة من أقطار مختلفة سمعناها بعد نصر حطين واستعادة القدس، ينبيء أن الإشادة بالبطل المسلم لم تكن من أجل فائدة عاجلة، تتمثل في مكافأة ماديّة أو موقع يكتسب ويقرّب من السلطان. من أجل ذلك، قد نرى في هذا اللون من الإشادة نمطاً مختلفاً عن شعر المدح الذي تعودنا عليه ممّا كان يوجه إلى خليفة أو أمير أو ذي جاه ونفوذ، إذ نحسّ أنه تعبير عن مشاعر الجماعة الإسلاميّة ومواقفها من أحداث العصر وشخصياته.

أما هذا الصوت الأندلسي، فهو صوت الرحالة المشهور ابن جبير، المتوفى سنة ٦١٤هـ، وهو صاحب الرحلة السابقة زمنا لأحداث حطين واستعادة القدس. وما كان يخفى على هذا الرحّالة الأديب، الذي عاش في الأندلس في فترة شهدت انتقاص الأسبان من أطراف الأرض الإسلاميّة في تلك البلاد، طبيعة المعركة التي كان صلاح الدين يخوضها في مشرق العالم الإسلامي، إذ إنها لا تختلف كثيراً عن طبيعة معركة مسلمي الأندلس مع الإسبان وحلفائهم الأوروبيين.

والأبيات التي اخترناها لهذا الرحالة الأديب تتحدث عن بطل مسلم هزم أعداءه ورموزهم الدينية، واستعاد أرضاً مقدسة من أراضي المسلمين، تعدّ الثالثة في مستوى قداستها عندهم بنصّ حديث نبويٍّ صحيح. وهذا البطل كما يرى الشاعر، قد قُدّر له منذ الأزل بإرادة من الله تعالى أن يكون الفتح على يديه، وما هو إلّا امتدادٌ تاريخيّ لأول خليفة مسلم أدخل القدس في ديار الإسلام. ونكرّر هنا القول إنّ ربط شخصيات العصر بالشخصيات الإسلاميّة التاريخية العظيمة، وكذلك ربط مدن المنطقة، وعلى رأسها مدينة القدس، بالمدن الإسلامية ذات المكانة الخاصّة في الإسلام، كانا نهجين اتبعهما كل شعراء ذلك العصر تقريباً من

أجل استثارة شعوريّة وعاطفيّة كثيراً ما تحصل من خلال ربط الحاضر بالماضي، ولا سيّما إذا كان للماضي دلالات خاصّة. ولم يكن من قبيل المصادفة في زمننا هذا أن يطلق على عملية اقتحام جند مصر قناة السويس في حرب رمضان، أو حرب تشرين الأول من عام ١٩٧٣ اسم «بدر».

يقول ابن جبير في حطين واستعادة القدس مخاطباً صلاح الدين :ـ

كسرْتَ صليبَهُم عنوةً فللّه درّك من كاسر
وأَدْبَرَ مُلْكُهُمُ بالشآم وولّى كأمِهِمُ الدابر
فتحت المقدّسَ من أرضِه فعادتْ إلى وصفها الطاهر

★★★★★

لَكَمْ ذَخَرَ اللهُ هذي الفتوحَ من الزمن الأول الغابر
وخَصَّك من بعد فاروقِهِ بها لاصطناعك في الآخر[١٠٦]

★★★★★

ولم يخرج العماد الأصفهاني معاصر صلاح الدين وكاتبه عن النهج نفسه حين ربط حطين بمعركة القادسيّة، وقارن صلاح الدين بعمر بن الخطاب، ورأى في انتصار القائد المسلم صورة لانتصار الحق والإسلام، وفي النصر الذي حققه تصديقاً لأحاديث الرسول عليه السلام في رجل ينتصر للدين عند شيوع الفتن والظلم بين بني البشر، يقول العماد :ـ

أما رأيتم فتوح القادسيّة في أكناف لوبيَةٍ تُجلىٰ وذا عُمَرُ
والحق يُغْرِس والطغيان منتجِب والكفرُ يُطْمَس والإيمان مزدهرُ
هذا المليكَ الذي بُشرى النبيّ به في فتنة البغي للإسلام ينتصر[١٠٧]

★★★★★

وننتقل إلى العنصر الثالث من عناصر الشعر الذي قيل في حطين واستعادة القدس، وهو ما يمكن تسميته بعنصر «النشوة والدهشة» نتيجة للنصر الإسلامي الكبير الذي فاق توقعات الناس وتطلّعاتهم. وقد لا يتفهم

مثل هذا الشعور الذي أحس به الناس منذ ثمانمائة سنة جيل من الأجيال اللاحقة مثلما يتفهمه أبناء هذا الجيل، وذلك لأن من الحقائق المحزنة في زمننا هذا، أنْ ساد بين الكثيرين من الناس في أيامنا شعور باليأس والقنوط، وإحساس بالعجز وقلة الحيلة حيال الأحداث المأساوية المعاصرة، وموضوع استعادة فلسطين والقدس، بعد أن مضى على ضياع قسم من فلسطين تسع وثلاثون سنة، وضياع بقيّتها مع أراض عربية أخرى، عشرون سنة. ولنذكر هنا أن حطين وقعت بعد مرور إحدى وتسعين سنة هجرية على سقوط القدس في يد الفرنج، أي بعد مرور قرن تقريباً على بدء الوجود الفرنجي في بلاد الشام. وقد كان لتخاذل حكام المسلمين في المراحل الأولى لهذه الغزوة، وكذلك لتنازع هؤلاء الحكام وتفرقهم وغياب الشخصية القوية من بينهم أثر شديد الوقع في نفوس مسلمي تلك الفترة، أسلمهم لمدة طويلة لمشاعر اليأس والقنوط. ولذا فإن الشعر الذي قيل في حطين واستعادة القدس، كان لا بد أن نرى فيه مشاعر النشوة والدهشة، بسبب الانتقال من موقف إلى موقف. ونحن نقرأ ترجمة لهذه المشاعر في مجموعة من النصوص الشعرية المعاصرة. وما نورده من هذه النصوص في السطور اللاحقة ليس بأكثر من نماذج منتقاة، إذ إن استقصاءها يحتاج إلى صفحات طويلة. ومن هذه النصوص المنتقاة، أبيات للشاعر محمد بن أسعد بن معمر الحلبي الجواني المتوفى بعد خمس سنوات فقط من معركة حطين واسترداد القدس أي سنة ٥٨٨هـ، وفيها يكاد الشاعر يرى في أحداث الواقع ضرباً من ضروب الأحلام التي تخامر النائم، ثم يتصورها تحقيقاً لوعد الله تعالى لرسوله بالنصر والفتح، مما يستوجب التسبيح والاستغفار، ولا سيما أن هذه الأحداث الكبيرة قد أعادت القدس إلى حظيرة الإسلام، وهي المكان الذي يعتقد المسلمون أنه الأرض التي يحشر الناس فيها يوم القيامة:

أترى مناماً بعيني أبصر القدس يفتح والفرنجة تكسر؟!

وقمامة قُمّتْ من الرجس الذي بزواله وزوالها يتطهر؟!
ومليكهم في القيد مصفود ولم يُرَ قبل ذاك لهم مليك يؤسر؟
قد جاء نصر الله والفتح الذي وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فُتِحَ الشآم وطُهِّر القدس الذي هو في القيامة للأنام المحشر(١٠٨)

★★★★★

ومن مدينة نابلس في فلسطين، نسمع نشيد النصر في شعر الرشيد النابلسي، وهو يرى في النصر الإسلامي واستعادة مدينة القدس تحقيقاً لأمل كبير يستوجب وفاء المسلمين بنذور سبق أن نذروها وجعلوها رهنا باستعادة القدس. ويقسم الشاعر بالله أن هذا الفتح لا نظير له بين الفتوح التي روتها الأخبار والسير، بعد أن أصبحت مدينة القدس مرة أخرى مكان عبادة وإحرام للمسلمين، وإذ أصبح علم الإسلام يخفق فوقها بعد أن طُوي عنها حقبة من الزمن. وها هي المدينة المقدسة بعد الفتح يتلى القرآن في مسجدها الأقصى، وينطلق صوت الأذان من قبابها بدلاً من أصوات النواقيس، وشتان ما بين صوت وصوت، ولا سيما إذا كان أحد الصوتين كلمات واضحة بليغة تؤثر حتى في الجمادات التي لا حياة فيها. يقول النابلسي :-

هذا الذي كانت الآمال تنتظر فَلْيوفِ لله أقوام بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حُكِيَتْ في سالف الدهر أخبار ولا سير

★★★★★

الآن طاب إلى البيت المقدس كالبيت المحرّم إحرامٌ ومُعْتَمَر
يا بهجة القدس إذ أضحى بها علم الإسلام من بعد طرح وهو منتشر
يا نور مسجده الأقصى وقد رُفعتْ بعد الصليب به الآياتُ والسُّوَر
شتانَ ما بين ناقوس يُدَقُّ به وبين ذي منطق يصغي له الحجر
الله أكبر صوت تقشعر له شُمُّ الذرى وتكاد الأرض تنفطر(١٠٩)

★★★★★

أما العماد الأصفهاني ، فقد كان بحكم موقعه من صلاح الدين وعمله كاتباً له مكلفاً إبلاغ أنباء النصر نثراً وشعراً إلى حكام المسلمين وقادتهم ، وعلى رأس هؤلاء الخليفة العباسي في بغداد ، الناصر لدين الله . ولكن دور العماد في التبليغ لم يكن في وقت ما دور نقل مباشر مجرد للأنباء والأحداث ، بل دور الأديب والإعلامي ، بكل ما ينبغي أن يتسم به هذا الدور من نشدان التأثير في النفوس ، والتنويه بالمنجزات العظيمة التي تحققت على أيدي أشخاص معينين وفي عهودهم . وغير غريب والحالة هذه أن توضع بشرى النصر والفتح في قالب مثير في قصيدة التهنئة التي وجهها العماد إلى الخليفة الناصر. وقد نوّعَ العماد في عوامل الاستثارة اللفظية التي تضمنتها قصيدته إلى الخليفة ، حين صوّر الفتح وقد انتشر خبره في أرجاء الأرض ، وهو فتح قد فاق تصورات الناس وتوقعاتهم ، وعجز عنه الملوك السابقون على الرغم من معاناة الناس مدة طويلة من شدائد الاحتلال الفرنجي . وقد ادّخر الله الفتح والنصر لأيام الخليفة العباسي الناصر ، ولجهاد صلاح الدين ، وهو نصر للإيمان في مواجهة أعداء الإيمان ، وما استعادة القدس إلا قمع لهؤلاء الأعداء ، وقد تمّ باستعادة الأقصى ضم مدينة إسلاميةٍ مقدّسة ، هي القدس ، إلى أقدس مدن الإسلام وهي مكة ، وبذا جُمع بين رمزي عبادة : هما الصخرة المشرفة في الأقصى ، والحجر الأسود في الكعبة :ـ

أبشر بفتحٍ أميرَ المؤمنين أتى	وصيتُهُ في جميع الأرض جوّاب
ما كان يخطر في بال تَصَوُّرُه	واستُصْعِبَ الفتح لما أُغلِق الباب
وخام عنه الملوك الأقدمون وقد	مضت على الناس من بلواه أحقاب
وجاء عصرك والأيام مقبلة	فكان فيه لفيض الكفر إنضاب
نصر أعاد صلاح الدين رونقه	إيجازه ببليغ القول إسهاب
أحيا الهدى وأماتَ الشركَ صارمُهُ	لقد تجلّىٰ الهدى والشركُ منجاب
بفتحه القدس للإسلام قد فُتِحت	في قمع طاغية الأشراك أبواب

والصخـر والحجـر الملثوم جانبُـهْ كلاهما لاعتمار الخلق محراب!(١١٠)

★★★★★

إلا أن حطين كانت بالنسبة إلى هذا الكاتب الشاعر، تستحق قصائد لا قصيدة واحـدة، وتثير من الدهشة والنشوة والتطلعات الواسعة الحافلة بالمـطامح الكبيرة ما يغري الشاعر بالقول ويحرك فيه حوافز النظم، ولا سيما بعد أن تمخّض عن نصر حطين استعادة موانىء الساحل الشامي التي كانت بيد الفـرنـج، وأصبـح من الممكن، كمـا يرى الشـاعر، انطلاق الأسـاطيل الاسـلامية منهـا لغزو الأرض الأوروبية نفسها، ولم يعد فتح القدس مجرد أمنية يتمناها الناس، بل قد أصبح في متناول اليد، وضمن ما خطّتْه الأقدار، كما أصبح في وسع صلاح الدين أن يندب بعض أبنائه لتـولي أمـر المـدينـة المقدسة، في حين يستهدف أبناء آخرون له مركز النصرانية الأول: مدينة رومة نفسها.

ونـحـن في ذا وذا طيرُ صحـيفتـه	بفتـح عكـا التي سُدَّتْ بهـا الثُّغَـرُ
تغـزو أسـاطـيلنـا منـهـا صِقلِّيةً	فَتُـذْعَـرُ الـروم والصقـلاب والخزر
من ذا يقـول لعـل القـدس منفتـح	إليك في سِفْـرِ يعقـوب له السفـر!
أبـو المـظفـر ينـويهـا فخـذ سفنـاً	من باب عكـا إلى طرطـوس تنتشر
يسبي فرنجـة من أقـطارهـا ولـه	مع المجـوس حروب قَدْحُهـا سَعَر
وبعض أبنـائـه بالقـدس منتـدب	وبعضهم رومة الكبرى له وطر(١١١)

★★★★★

وننتقل الآن إلى آخر هذه العناصر البارزة في الشعر الذي واكب معركة حطين واسترداد مدينة القدس، وهو ما يمكن أن نسميه عنصر «التحريض والاستحثـاث»، أو ما يطلق عليه في زمننـا هذا، الـدعـوة إلى استغلال النصـر. والمتتبـع للأحـداث بعـد معركة حطين، لا بد أن تلفته ظاهرة استغلال صلاح الدين لنصر حطين، كما أن الناظر في الشعر المرتبط بهذا

النصر، لا بد أن يلفته حرص الشعراء على أن يستغل المسلمون النصر إلى أبعد حد مستطاع. فإذا كان صلاح الدين قد استغلّ نصر حطين بانتزاع سريع للمدن والقرى والمواقع التي كان يحتلها الفرنج، فإن شعراء العصر ما فتئوا يستحثون القائد المنتصر على القضاء بصورة نهائيّة على الوجود الفرنجي في بلاد الشام. والمعروف أن مدينة صور بعد أن احتُلّت مواقع الفرنج الأخرى في بلاد الشام، كانت مركز تجمّع الفرنج، ولا سيما بعد أن سقطت القدس في أيدي المسلمين، وسمح لمن فيها من الفرنج بمغادرة المدينة والتوجّه إلى صور تحت حماية جند صلاح الدين. ولذا لم يكن بالغريب أن يستحث الشعراء صلاح الدين على استرداد ما تبقى من معاقل للفرنج بعد معركة حطين وفتح القدس، وأن تكون صور محور تحريض هؤلاء الشعراء والموضوع الأول لاستحثاث صلاح الدين على إنهاء الاحتلال الصليبي للساحل الشامي. وإذا كان من سمة هذه الدراسة الاكتفاء بتقديم النماذج، دون الاستقصاء الكلي للشواهد، فإن من الملائم أن نكتفي في السطور اللاحقة بتقديم شواهد من شعر ثلاثة من شعراء عصر صلاح الدين، لإقامة الدليل على ما ذهبنا إليه. وأول هذه النماذج بيتان لأبي الحسن علي ابن الساعاتي يستحث فيهما صلاح الدين على استعادة مدن الساحل، ويشاكل عن قصد بين كلمة «صور» جمع «صوراء» بمعنى مائلة، وبين مدينة «صور» الساحلية المضمرة في نفسه، وذلك إذ يقول مخاطباً صلاح الدين بعد فتحه القدس:ـ

فألـمِمْ بالسواحل فهي صورٌ إليكَ وألحِقْ الهامَ المتونا
فقلب القدس مسرور ولولا سطاك لكان مكتئباً حزينا(١١٢)

★★★★★

أما العماد الأصفهاني، فيجمع في تحريضه صلاح الدين على اجتثاث الوجود الصليبي من سواحل الشام، ما بين صور وأنطرسوس وأنطاكية، من أجل إخلاء السواحل الشاميّة كليّة من العدو المحتل:ـ

قل للمليك صلاح الـدين أكـرم من   يمشي على الأرض أومن يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى   صورٍ فإن فُتِحَتْ فاقصـد طرابُلُسـا
أثِـرْ على يوم أنـطرسـوسَ ذا لَجَب   وابـعـثْ إلى ليل أنـطاكيّة العسسـا
وأَخْـلِ ساحـل هذا الشـام أجمعَـهُ   من العـداة ومن في دينـه وكسـا(١١٣)

★★★★★

ونلمح في شعر فتيان الشاغوري المتعلق بمدينة صور استعصاء هذه المدينة على صلاح الدين عندما حاول أخذها، وذلك بسبب قوة أسوارها وتحصينـاتها، بعد أن استردّ صلاح الدين مدن الساحل الأخرى، ومنها مدينـة أنـطاكية الحصينـة، إذ إنـه وهو يستحث الدين صلاح على أخذ المدينة، يحاول أن يهوّن عليه أمرها ومنعة أسوارها، ولا سيما بعد أن يئس الصليبيون من نصرة الناصر والمنجِد :ـ

هل تُعْجِـزَنْ صورٌ مليكـا ناصـرا   لله أينَ يسـرْ يُسْـرّ ويُنْـصـرِ

★ ★ ★ ★ ★

ما سور صورٍ عاصـم منـه وهـل   سور المعـاصم عاصم لِمُسَـوِّرِ؟!
فانهـدْ لصـورٍ فهي أحسن صورةٍ   في هيكـل الـدنيا بدت لُمَصـوِّر
لمـا ملكْـتَ حصـونَ أنـطاكيّةٍ   يئس الصليب وحزبه من مُظْهِر(١١٤)

★ ★ ★ ★ ★

ومن نافلة القول، بعد تقديم الشواهد الشعرية السابقة في إطار عناصر أربعـة، أن هؤلاء الشعـراء جميعـاً، في أي مسـرب من المسارب التي سلكوها في الحديث عن حطين، ثم عن فتح القدس، كانوا يرمون إلى التأثير، وليس إلى مجرّد إيصال المعلومات عن الأحداث الكبار التي جرت في عصرهم. وهم فيما رموا إليه، كانوا أمينين لرسالة الفن على اختلاف أشكاله وأنماطه وأزمانه وأمكنته، إذ إنه ما من شكل من أشكال الفن في أي زمان ومكان، إلا قُصِد به إحداث تأثيرات معيّنة واستثارات شعوريّة خاصة

في النفوس. ولم يكن غريباً والحالة هذه، في إطار الانتماءات القائمة في ذلك العصر، وفي ظل صراع اتخذ شكل الحرب الدينيّة، أن يكون العامل الأول في محاولة استثارة المشاعر والأحاسيس في الشعر المذكور، هو العامل الديني، لما لهذا العامل من قدرة على الاستثارة الشعورية، ولما له من ميزة الاستقطاب العام للطاقات الاسلامية جميعها، بغض النظر عن العرق أو البقعة الجغرافية في العالم الإسلامي الكبير، ولا سيما أن الشخصيات القيادية في معركة حطين والقدس، بل وقبيل ذلك، كانت شخصيات تجمعها وبقية الناس عقيدة الإسلام دون رابطة العرق، فصلاح الدين مثلاً كان من أصل كردي، بينما كان نور الدين من أصل تركي، ولكن كلا الرجلين قد جاهد تحت راية الإسلام، وكانت لغة القرآن هي لغته التي ينطلق بها، وبها كان يدير شؤون دولته، وبها كانت تسجل أحداث عصره، والعربية هي اللسان، كما قال بذلك رسول الإسلام صلوات الله عليه، وليست بأمّ ولا بأب لأي إنسان.

الخاتمة

وردت على ألسنة المتعاملين مع المادة التاريخية عبارتان متناقضتان هما: «التاريخ يعيد نفسه»، و«التاريخ لا يعيد نفسه أبداً». ولعل نظرة متأنية في العبارتين تكشف عن صدقٍ فيهما معاً، على الرغم من التناقض الواضح بين مدلوليهما اللغويّين الظاهريين.

فالعبارة الأولى تصبح مقبولة إذا نحن اكتفينا من دلالة إعادة التاريخ لنفسه وجود مشابه بين أوضاع مضت وأوضاع لاحقة بها، وكثيراً ما يحدث هذا في تاريخ الإنسانية، وفي تاريخ أي شعب من الشعوب كذلك. وتصبح العبارة الثانية مقبولة، إذا نحن أخذنا بعين الاعتبار أنه من المستحيل أن تتطابق أوضاع لاحقة مع أوضاع سابقة في كل جزئياتها وتفصيلاتها، لأن الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم كما يقال. فلكل زمان ظروفه الخاصة به في أنماطها العريضة الكبيرة، وكذلك في تفصيلاتها وجزئياتها.

نورد هذه التقدمة القصيرة لخاتمة هذه الدراسة عن حطين وآثارها، لكي نقول إن ثمة مشابه لا يمكن نكرانها في أحداث هذا الجزء من العالم العربي الإسلامي في وقتنا هذا، وأحداث هذا الجزء نفسه زمن حطين، وهي مشابه لا تخفى على أي دارس متمعن لما نحن فيه الآن، ولما كنا فيه قبل ثمانمائة عام. إلا أنه ينبغي في الوقت نفسه أن نحذر من المغالاة، إذ نتصور أن ثمة تطابقاً تاماً بين الحاضر والماضي، فنستنيم إلى فكرة الهزيمة المحتومة لعدو اليوم، مثلما حدث لغزاة هذه المنطقة قبل ثمانية

قرون. فكثير من الظروف التي نعيشها يختلف جوهرياً عن ظروف الماضي، بما في ذلك اختلاف موازين اليوم عن موازين الأمس في ميدان العلوم والتقنية وأنواع الأسلحة والمعدات التي تستعمل في القتال، وقضايا التفوق البشري العدديّ، وغير هذه من الأمور التي لا تخفى على إنسان العصر المتبصر، والتي ترتبط بطرائق معيشتنا المعاصرة.

غير أن هذا كله ينبغي ألّا يحول دون استفادة اللاحقين من تجارب السابقين، وإلا تحولت دراسة التاريخ إلى مجرد تعرف على أخبار الماضين، فيما يشبه القصص المأثورة، دون أن يكون لهذه الدراسة مردود عملي في حياة الناس. وحتى هذه الأمجاد التي صنعها أسلافنا الذين كتبوا تاريخ أمتنا، ينبغي أن تدرس لا لمجرد اجترار الماضي والتباهي به، بل لكي نتعرف من خلالها على عوامل النجاح في مسيرة الأمة. وعلينا أن نتذكر أن الأمجاد الماضية هي من صنع أولئك الأسلاف، وليس من صنعنا نحن، وأنها ستكون حجة علينا حين نحس أننا لم نحافظ عليها، بل قد نحسّ في حالات معينة أننا قد ضيّعنا ما خلّفوه لنا بسبب تقصيرنا وضعف أدائنا. وأي دراسة لتراث قديم، ومنه دراستنا لتراثنا العربي الإسلامي، ينبغي أن توظّف ويستفاد منها في معالجة مشكلات عصرنا وهمومه، وأن تدرس في ضوء أدوات المعرفة الجديدة التي توافرت لنا، ولم تكن متوافرة لأسلافنا.

وفي الحديث الخاص بحطين بعد مرور ثمانية قرون على هذه المعركة الحاسمة في تاريخ الإسلام، يمكن لأي دارس للمعركة بتفصيلاتها وبما تمخّضت عنه، أن يستخلص عبراً وفوائد لا جدال حولها، من مثل وحدة الصف ووحدة القيادة، وأثر الإيمان الصادق في الانتصارات العسكرية، وتميز القائد وقدرته في التخطيط العسكري والإشراف الذكي الماهر على سير المعركة، ثم الاستغلال الذكي المتبصر للنصر. . . وما إلى ذلك من أمور يسهل استقراؤها من خلال دراسة متمعنة متأنية لذلك

الحدث الكبير في تاريخ هذه المنطقة، وتاريخ الإسلام بصفة عامة. ولا نريد هنا أن ننتقص بوجه من الوجوه من كل هذه العبر والفوائد، إلا أن مادّة هذه جميعاً هي من المسلّمات التي لا تغيب عن عقل دارس أو معتبر، إذ هي داخلة في النواميس الكونية التي تحكم البشر جميعاً، مثلما أنها تشكل أجزاء من عقيدة الإسلام وشريعته، منذ أن تنزّل بهذه العقيدة قرآن، ومنذ أن أوضحَ هذه العقيدةَ فيما حدّثَ به ومارسَهُ وطبَّقَهُ رسول الإسلام صلوات الله عليه، ومنذ أن ثبّتَ تاريخُ الإسلام العملي هذه المسلّمات في أحداثه ووقائعه عبر القرون الخمسة عشر التي مر بها هذا التاريخ. ومن أجل ذلك، يخشى كاتب هذه السطور أن يكون الحديث المفصّل في تلك العبر والفوائد نافلة من النوافل، أو حديثاً معاداً مكروراً ممّا هو شائع ومعروف لدى الناس جميعاً، وهذا ممّا يجعله مفتقراً إلى جديّة وتجديد يتلمّسها القارىء في المعتاد حين يطالع دراسة يتوخى منها جدة في المادة وجدية في البحث.

من أجل ذلك كلّه، سأحاول في السطور اللاحقة أن أورد في نطاق عناصر محددة بعض الاستخلاصات التي يخرج بها الدارس لمعركة حطين وما تمخضت عنه تلك المعركة، وذلك بالاتكاء على مصادر ومراجع تخص كلا طرفي النزاع، لا طرفاً واحداً منهما.

وأول ما أورد في نطاق هذه العناصر قد يمثل ردا على تساؤلات تثار حول علاقة المسلمين في تلك الفترة مع غير المسلمين ولا سيما مع المسيحيين من سكان البلاد ومواطنيها الذين لم يفدوا إلى الشرق الإسلامي مع الغزاة الأوروبيين. وسيكون حديثي في نطاق هذا العنصر، كما في العناصر اللاحقة، حديثاً مجملاً يعتمد إلى حد كبير على الوقائع والأحداث الموثّقة.

تحدّثنا المصادر الغربية عن انعدام التواؤم والتفاهم بين المسيحيين

الأرثوذكس الذين كانوا يعيشون داخل القدس بعد احتلال الفرنجة لها، وتذكر أنهم كانوا يتوقون إلى أيام حكم المسلمين العادل الذي أتاح لهم حرية العبادة على النحو الذي يشاؤون. وتذكر هذه المصادر نفسها أنه كان لصلاح الدين مستشار مسيحي للتعامل مع المسيحيين، وأن هذا المستشار كان عالماً أرثوذكسياً من القدس اسمه يوسف بطيط Joseph Batit ، وتقول إنه قد اتصل بالأرثوذكس داخل القدس عندما كان صلاح الدين محاصراً لها، وأنهم وعدوه بفتح أبواب المدينة لصلاح الدين. ولذا لم يكن غريباً أن يبقى المسيحيون الأرثوذكس في القدس بعد استعادة صلاح الدين للمدينة(١١٥). ومما ينبغي ذكره هنا كذلك، أن المصادر الغربية ذكرت أنه عند دخول جيش صلاح الدين مدينة القدس فاتحاً، لم يُنهب بيت واحد، ولم يؤذ شخص واحد من سكان المدينة المسيحيين، سواء أكان من أهل البلاد الأصليين، أم من الغزاة الغربيين، إذ امتد التسامح الإسلامي ساعة النصر ليشمل الغزاة من الفرنج، كما هو واضح من رواية المؤرخ، رنسمان Runciman الذي ذكر أنّ بطريرك القدس المدعو هيراقليوس Hiraclius ، قد خرج من المدينة بأكداس من الذهب والأمتعة، ومع ذلك لم يستوف صلاح الدين منه إلا عشرة دنانير فقط، وهو المبلغ الذي فرض على كل رجل عادي من رجال الفرنج مقابل إخلاء سبيله بعد استعادة المدينة.

ومن مظاهر هذا التسامح كذلك، أن الملك العادل، أخا صلاح الدين، قد طلب منه إعطاءه ألفاً من أسرى الفرنج، ثم أمر بإطلاق سراحهم، كما أن البطريرك طلب هو الآخر عدداً من الأسرى، فأعطي له (٧٠٠) أسير، وأعطي أحد كبار رجال الفرنج في المدينة، وهو باليان صاحب الرملة Balian (٥٠٠) أسير من أجل تحريرهم وإطلاق سراحهم. وأعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل مُسِنٍّ ومُسِنّة. وعندما توجهت إليه نساء الفرنج باكيات حائرات أين يذهبن، وعد بإطلاق سراح كل زوج، وقد قدّم أعطيات إلى الأرامل والأيتام، ولم تغلق كنيسة القيامة بعد استعادة

صلاح الدين المدينة إلا لثلاثة أيام فقط، ثم سمح للحجاج المسيحيين بأن يزوروها.

وقد شمل تسامح صلاح الدين في المدينة المقدسة غير المسيحيين أيضاً، إذ إنه شجع من كان فيها من أفراد اليهود على البقاء مع المسلمين ومسيحيي الشرق(١١٦). ويسترعي نظرنا كذلك ما ذكره سيتفن رنسمان، من أن صلاح الدين حاول بعد استعادته مدينة عكا، أن يستبقي التجار المسيحيين فيها، ولكنهم خافوا من المستقبل وارتحلوا مع أموالهم المنقولة(١١٧).

وإذا كنا نلحظ من خلال المعلومات الموردة آنفاً تناقضاً غريباً ما بين سلوك الفرنج وسلوك المسلمين في تلك الحقبة التاريخية التي لم تنظّم فيها العلاقات بين المحتلين وأهل الأرض المحتلة مواثيق أو منظمات دولية، فإن ما نلحظه من هذا التناقض يتحول إلى تعجب واستغراب إذ نقارن بين معاملة صلاح الدين للفرنج المهزومين في حطين والقدس، ومعاملة الفرنج الآخرين لهؤلاء المهزومين من بني جلدتهم. فالمصادر الغربية تحدثنا أن فرنج مدينة صور، وهي من آخر المواقع التي بقيت بأيدي الفرنج بعد معركة حطين واستعادة القدس، سمحوا فقط بدخول المقاتلين من الفرنج إلى مدينتهم، حين التجأت جموع الفرنج إليها، وتذكر هذه المصادر كذلك، أن المدعو ريموند أف نيفين Raymond of Niphin قد استلب قرب البترون Batrun الكثير من أموال اللاجئين من الفرنج. وفي طرابلس، أغلق الذين كانوا فيها الأبواب أمام اللاجئين بسبب قلة الغذاء، فتوجهوا إلى أنطاكية، ولم يدخلوها بسهولة. وأمّا لاجئو عسقلان، فقد أجبر المصريون أصحاب السفن الإيطالية على نقلهم مجاناً إلى أوروبا، بعد أن حاول هؤلاء أن يتقاضوا منهم مبالغ ضخمة مقابل نقلهم(١١٨).

ولعلّ هذا الذي أورد في الصفحات السابقة مباشرة، وكله مستقى من

مصادر غربية، يبيّن دونما مبالغة أو تعليق طويل، نوعية الذين يؤتمنون على رعاية المقدسات عند مختلف الأديان في هذه المنطقة، يستوي في ذلك من كانوا في عهد صلاح الدين، أول من استرد المدينة المقدّسة بعد أن وقعت في أيدٍ غير إسلامية، ومن سيقدّر لهم أن يستردوا القدس ثانية من محتليها، لأنّ المنبع الذي استُقِيَ منه في السابق، والذي سوف يستقي منه في المستقبل، منبع واحد، يدعو إلى سلوك طريق واحد لا يجوز التحوّل عنه إلى طريق آخر.

وأنتقل الآن إلى عنصر آخر أرى أن له دلالته، وأنه تتوجب على أهل هذه المنطقة من المشرق العربي الإسلامي معرفته، وهو النظرة الاستعمارية إلى هذا الجزء من العالم العربي الإسلامي، التي تصطبغ أحياناً بالصبغة الدينية والطائفية، وأحياناً أخرى بصبغات حضارية وثقافية. وهنا ينبغي القول إنه منذ أن دخلت بلاد الشام في حوزة المسلمين أيام الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، ما فتئت بعض الفئات ترى أن الوجود العربي الإسلامي في هذه البلاد وجود غريب، وأنه كان نتيجة لانتصار عسكري حققته جيوش الفتوح الإسلامية الأولى. وتبرز هذه الادّعاءات أحياناً، وتتوارى على استحياء أحياناً أخرى، بحسب الظروف القائمة في المنطقة. ولكنها لم تختف بالكلية من نفوس جماعات معينة على الرغم من كرّ السنين عبر خمسة عشر قرناً من الزمن. ومثل هذا الشعور قائم على فرضيّة خاطئة لا يتقبلها التاريخ، لأن الوجود السكاني العربي كان حقيقة واقعة في هذه البلاد قبل الفتح العربي الإسلامي الأول لها، ولم يغير من حقيقة هذا الوجود أن حكام البلاد المسيطرين عليها قبل الفتح كانوا من الروم البيزنطيين. فالعبرة في صبغة أي بلد، لم تكن في يوم من الأيام مرتبطة بالقوة السياسية والعسكرية المسيطرة عليه، وإلا لعُدّت أجزاء كبيرة من بلدان العالم القديم زمن الامبراطورية الرومانية بلاداً رومانية، لأن الرومان كانوا يسيطرون عليها عسكرياً وسياسياً، ولعدت كذلك أجزاء كبيرة

من العالم الحديث بلاداً بريطانية، بسبب سيطرة بريطانيا عليها إبّان امتداد امبراطوريتها. وما من أحد يمكن أن يجهل أن سكان بلاد الشام في ظل الحكم البيزنطي كانوا في غالبيتهم عرباً، وأن الحكام المحليين في ظل الحكم البيزنطي كانوا عرباً كذلك، وإلا لما استطاع حسان بن ثابت أن يأتي من الحجاز لكي يسمع مدائحه لهؤلاء الحكام قبل العهد الإسلامي باللغة العربية، حين كان هذا الشاعر يفد على ملوك الغساسنة في جلّق أو دمشق ببلاد الشام.

على أنّ الحقائق ليست لسوء الحظ هي وحدها التي تصوغ أفكار الناس دائماً وتحكم تصرفاتهم، وليست هي وحدها التي تصنع الأحداث. فقد لبث البيزنطيون قرونا طويلة بعد الفتح الإسلامي لبلاد الشام يتوقون إلى استعادتها ويعملون على ذلك. وما حروبهم مع العرب والمسلمين زمن بني أمية، ثم زمن العباسيين، وكذلك صراعهم مع دولة الحمدانيين ثم مع الفاطميين والسلاجقة الأتراك، إلا ترجمة عملية لمطامحهم في هذه البلاد. وحين جاء الفرنج أو الصليبيون من أوروبا، كانت فكرة انتزاع بلاد الشام من المسلمين قائمة حتى بعد انتصارات صلاح الدين في حطين، وبعد استعادة القدس، بدليل أن ملك بريطانيا، رتشارد قلب الأسد، قال في رسالة له أرسلها إلى صلاح الدين من أجل التوصل إلى صلح معه، إنه يريد أن تعود القدس وفلسطين إلى حوزة الفرنج. ومما جاء في رسالته قوله: «. . . والقدس متَعَبَّدُنا، وما ننزل عنه ولو لم يبق منا واحد. وأما البلاد، فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن»(١١٩). ولعل شعوراً كان يراود فئة معينة من الناس في جزء من بلاد الشام في تلك الحقبة قد تبدّى في مساعدة الموارنة للقائد الفرنجي سنت جيل على احتلال طرابلس(١٢٠)، وهو شعور مافتىء يبرز من حين إلى آخر كلما واتته الظروف، منذ الفتوح الإسلامية لبلاد الشام وحتى يومنا هذا، كما تدل على ذلك الوقائع قديماً وحديثاً. والاحتلال الفرنجي الموقوت إبّان الحروب الصليبية لأجزاء من بلاد الشام

ترك آثاراً بعيدة المدى في نفوس الأوروبيين، استمرت حتى هذا العصر الذي نعيش فيه، وتمثلت في محاولة إقامة كيان أوروبي ذي طابع سياسي في فلسطين منذ القرن التاسع عشر، وفي مداخلات أوروبية في بلاد الشام إبّان الحكم العثماني تحت شعار حماية الأقليّات الدينية في هذه البلاد. ويحدثنا مصدر أوروبي عن أن مؤرخاً فرنسيًّا حديثاً هو لويس مادلن Louis Madelin يرى أن على الفرنسيين أن يعودوا إلى بلاد الشام باعتبار أنها كانت لهم زمن الحروب الصليبية، وقد نشر هذا المؤرخ عام ١٩١٨ محاضرات تحت عنوان «التوسع الفرنسي»، وبيّن في محاضراته تلك أن الدويلات الصليبية في بلاد الشام، إنما كانت فصولاً أولى في تاريخ الاستعمار الفرنسي. وقد أثّرت نظرته هذه على بعض من المؤرخين اللبنانيين المعاصرين[١٢١].

وإذ ندرك ذلك، لا نستغرب أن تعقد معاهدة سايكس بيكو بين الانجليز والفرنسيين، وهي المعاهدة التي اقتسم الشريكان بموجبها خلال الحرب العالمية الأولى بلاد الشام، ولا نفاجأ بتصريحات تصدر عن الجنرال الفرنسي غورو حين دخل دمشق ووقف على قبر صلاح الدين، وأعلن أن الأوروبيين قد عادوا مرة أخرى إلى بلاد الشام التي حرّرها صلاح الدين منهم، ولا بتصريحات الجنرال الانجليزي اللنبي عندما دخل القدس عام ١٩١٧ ورأى في دخوله المدينة المقدسة نهاية للحروب الصليبية. وإذا كان الانجليز قد انسحبوا من القدس وفلسطين عام ١٩٤٨، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن أوجدوا داخل الأرض المقدسة كياناً غريباً عن العروبة والإسلام، مرتبطاً حضاريًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا بالغرب الذي عمل على وجوده، وهذا الكيان، كما هو معلوم الآن، كيان توسّعي يطمح إلى الامتداد في أرض الشام وما وراءها، كما كان يطمح الكيان الفرنجي قبل قرون.

أما العنصر الثالث الذي له دلالته، والذي ينبغي ألا يغيب عن ذهن الدارس لحقبة حطين، فهو ما تعلق بالوجود السكاني لهذه العناصر الغربية في بلاد الشام. وإذ ينبغي أن نولي هذا العنصر اهتماماً خاصاً، فلأنه كان ذا أهمية كبيرة في الصراع الذي قام بين الغزاة وأهل البلاد في القديم، ولأنه ما يزال ذا أهمية خاصة في الأرض العربية التي يحتلها الغزاة الجدد. بل لا نبالغ إذا قلنا إن موضوع الوجود السكاني، أو التوزيع السكاني في الأرض المحتلة، كان من العوامل الحاسمة في تقرير نتيجة الصراع في الماضي، وقد يكون كذلك من العوامل الحاسمة في تقرير نتيجة الصراع في الحاضر. أما في الماضي، فإنه على الرغم من أن الوجود الفرنجي في بلاد الشام كان وجوداً استيطانياً، بالإضافة إلى كَوْنِهِ هيمنةً سياسية وعسكرية، إلا أن سكان البلاد المحتلة ظلوا بصورة أساسية من أهلها الأصليين، لأن معظم الوافدين من أوروبا كانوا من المقاتلين، ولم يتوافر للغزاة عدد كاف من السكان المدنيين الذين يمكن توزيعهم في الأنحاء المختلفة من الأرض المحتلة. ومن أجل ذلك، تمثل الوجود الفرنجي السكاني في بلاد الشام في مجموعة مستوطنات تحميها حصون وقلاع وحاميات فرنجية، دون أن ينشأ عن ذلك عمق سكاني يرفد الوجود العسكري للغزاة ويعضده. ولم يكن من قبيل المصادفة أن يضطر بولدوين الأول ملك القدس الفرنجي إلى أن يحضر نصارى محليين من شرقي الأردن ويسكنهم القدس، ويشركهم في استيطان المدينة مع الفرنج، بعد أن تناقص سكانها إثر احتلال الفرنج لها[١٢٢]، مع أن الأحداث اللاحقة قد بينتْ كما سبق أن أوضحنا في الصفحات الماضية أن النصارى الشرقيين لم يندمجوا اجتماعيا بالغزاة الأوروبيين، وأن بعضهم كان عوناً لصلاح الدين حينما حاصر القدس ثم استعادها بعد مرور واحدٍ وتسعين سنة على امتلاكها. وقد كان لهذا الوضع السكاني أثره الذي لا بد منه في الصراع الذي استمر قرنين في بلاد الشام، وذلك لأن خلوّ مستوطنات الفرنج من

الحاميات العسكرية، وهي داخل بحر من السكان المحليين، كان يعرضها دائماً للخطر. فعندما خلت هذه المستوطنات من الحماة حين توجه بولدوين ملك القدس بجيشه إلى شرق الأردن لاعتراض جيش صلاح الدين، استطاع فروخ شاه ابن أخي صلاح الدين أن يهاجم بنجاح منطقة الجليل[١٢٣]. وعندما حشدت الحاميات الفرنجية للاشتراك في معركة حطين، بقيت معاقل الفرنج ومستوطناتهم بلا حماية تقريباً، وكان من نتيجة هزيمة الفرنج في تلك المعركة أن استسلمت هذه المعاقل للمسلمين دون مقاومة تذكر، في فترة زمنية قصيرة جداً، إذا أخذنا بعين الاعتبار وسائل الحركة والانتقال قبل ثمانمائة عام[١٢٤]. ومما له دلالة واضحة بالنسبة إلى الوجود السكاني في الأرض المحتلة، أنّ الفرنج جلوا عن منطقة نابلس بعد معركة حطين، لأن الفلاحين المسلمين الذين كانوا يسكنون المنطقة ثاروا بصورة جماعية انتصاراً لصلاح الدين.

وباستقرائنا لهذه الحقائق من خلال الأحداث التاريخية السابقة نستطيع أن نتفهم بوضوح سياسة الغزاة الجدد الاستيطانية في الأراضي المحتلة، ولا سيما أنهم درسوا بعناية كل تفصيلات الوجود الفرنجي في بلاد الشام، وعوامل زوال هذا الوجود. فمن الواضح للعيان، أن هؤلاء الغزاة الجدد، إنما أرادوا أن يتلافوا أخطاء الغزاة القدامى، وذلك عن طريق توزيع سكاني مدروس لبني قومهم ومهاجريهم في جميع أجزاء الأرض المحتلة، لكي يضمنوا لأنفسهم كثافة سكانية في هذه الأجزاء، تضمن لهم رفد وجودهم العسكري فيها، وتربط مستوطنيهم بتراب هذه الأرض، من أجل أن يعتبروا أنفسهم جزءاً لا يتجزأ منها، ولا سيما أن هذه الروابط الحسية المادية تُعَزَّز بالكثير من الأقاويل والأساطير التاريخية التي تجعل الارتباط بأرض فلسطين جزءاً من دين المحتلين وعقيدتهم. وهؤلاء الغزاة يُدْركون جيداً أن السيطرة العسكرية على الأرض لا تغيّر من صبغة هذه الأرض، إذا كان من يعيشون عليها يختلفون عنهم في كل شيء،ويرون أن

الأرض أرضهم وأرض آبائهم وأجدادهم، وأن هذه السيطرة الخارجية، لا تعدو أن تكون حدثاً لا بد أن يزول في يوم من الأيام.

وأنتقل الآن إلى العنصر الرابع والأخير من العناصر المتعلقة بما يمكن أن نستخلصه من أحداث حطين وما تلا تلك الأحداث، وهو ماهية الموقف الإسلامي من الوجود الغريب قديماً، وما يمكن أن يكون عليه موقفنا من الوجود الغريب في أرض فلسطين في زمننا هذا.

لقد عانى ساكنو بلاد الشام كثيراً خلال الغزو الفرنجي لبلادهم، ثم بسبب الوجود الفرنجي في هذه البلاد عبر قرنين من الزمن، وكانت المعاناة عامة شاملة، إذ كان هذا الوجود خطراً على الإنسان والأرض والعقيدة والتراث واللغة والحضارة والثقافة، وعلى مصادر الرزق ومقومات الحياة، وكرامة الإنسان وأمنه وحرية حركته وتنقله داخل البلاد ومنها وإليها. وقد تغيرت خلال هذه الفترة الطويلة من الاحتلال الأجنبي ملامح بعض الأماكن والمواقع، ورأى الناس في هذه الأماكن واقعاً جديداً مخالفاً لما عهدوه هم وآباؤهم منذ مئات السنين. وعلى سبيل التمثيل فقط، لا على سبيل الحصر، نذكر أنه قد أقيم واقع جديد في أقدس مدينة من مدن فلسطين، وهي مدينة القدس، بل في أقدس بقعة في هذه المدينة، وهو المسجد الأقصى. فقد أصبح هذا المسجد، ولا سيما محرابه، كما يقول المؤرخ ابن واصل، مشغولاً بالخنازير والخبث وما أحدثه الفرنج من الأبنية، ومنها مساكن للداويّة غربي الأقصى، ومنها مخازن ومستراح وغير ذلك، وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم، وبنوا في وجه المحراب جداراً، وتركوه هُرْياً ـ أي مخزناً، وقيل اتخذوه مستراحاً عناداً للإسلام وبغياً، كما يحدثنا هذا المؤرخ[١٢٦]. ومع كل تلك الأوضاع الخطيرة، والواقع السيء، وما قد يبعثه ذلك من مشاعر اليأس والقنوط في النفوس، بقي الشعور لدى عامة الناس، بأن هذا الوجود الأجنبي طارىء، وأنه لا بدّ أن يزول، وكان هذا الشعور قوياً بصورة خاصة عند قادة ردّة الفعل الإسلاميّة

الكبيرة للغزو الفرنجي لبلاد الشام، من الزنكيين أولاً، ثم من الأيوبيين بعد ذلك. ويكفي شاهداً على ذلك أن نور الدين زنكي أنشأ منبراً متميزاً في صناعته في مدينة حلب، وجعله برسم المسجد الأقصى، أي من أجل أن يوضع فيه، وذلك قبل فتح القدس بنيف وعشرين سنة[١٢٧]. وهذا المنبر نفسه هو الذي نقله صلاح الدين على ظهور الإبل من حلب إلى القدس بعد استعادة المدينة، وعُرِف بمنبر صلاح الدين، وبقي قائماً في المسجد الأقصى إلى أن أحرقه الصهاينة في شهر آب من عام ١٩٦٩م. وعندما كتب رتشارد قلب الأسد، ملك الانجليز إلى صلاح الدين ما سبق إيراده في الصفحات الماضية حول مطالبة الفرنج بالقدس وفلسطين، أو ما هو قاطع الأردن على حدّ تعبير رتشارد، ردّ عليه صلاح الدين بالعبارات التالية التي تبيّن إيمانه المطلق بأن البلاد بلاد المسلمين، وأن الوجود الفرنجي فيها إنّما هو وجود طارىء، كما هو واضح من قوله في ذلك الرّد: «القدس هو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا، ومجتمع الملائكة، فلا يُتَصوَّر أن ننزل عنه، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين. وأما البلاد، فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت، وما أقدَرَكُم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائماً. . . وما في أيدينا نحن منها نأكل بحمد الله مُغَلَّه وننتفع به. . . »[١٢٨].

وإذا قيل إن من حكام المسلمين من سلّم بالوجود الفرنجي وهادن الفرنج، بل وتعاون معهم في بلاد الشام ثم في مصر، كما فعل مجير الدين في دمشق، وكما فعل وزراء الفاطميين عند حصار الفرنج لأنطاكية ثم بعد دخولهم أرض مصر، قلنا إن هذا الوجود كان مرفوضاً دائماً عند عامة الناس، ثم عند حكام المسلمين الآخرين، بدليل وقوف نور الدين في وجه حاكم دمشق المذكور، ثم وقوف جيش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين في وجه وزيرير الفاطميين ضرغام ثم شاور في

مصر. وقد عدت مهادنة الفرنج في أي مرحلة من مراحل الصراع بينهم وبين أهل البلاد خيانة وخروجاً عن الطريق السويّ، كما تبين ذلك بجلاء النصوص التاريخية وقصائد الشعراء المعاصرين، وكذلك خطب الأئمة البارزين، ولا سيما على منبر المسجد الأموي في دمشق[١٢٩]. وإذ نحاول أن نستقرىء من هموم الماضي ما يعين على معالجة هموم الحاضر، نقول ان رفض الوجود الغريب القائم في أرض فلسطين وغيرها من الأرض العربية يبقى شرطاً من شروط مقاومة هذا الوجود، وسبيلاً من سبل إزالته، ولو على المدى البعيد. غير أنّ للرفض شكلين لا شكلاً واحداً، ويمكن أن يسمى الأول منهما رفضاً إيجابياً، في حين يسمى الآخر رفضاً سلبياً. والمقصود بالرفض الإيجابي، هو ذلك الرفض الذي مع عدم تقبله الواقع السيء، لا يقف عند هذا الحدّ، بل يتجاوزه إلى العمل المدروس الواعي للتخلص من هذا الواقع، والإعداد العملي لإزالته. في حين أن الرفض السلبي يقف عند حد عدم الرضا وعدم التقبّل في إطار الشعور والإحساس والتفكير، دون أن يتجاوز ذلك إلى تخطيط وإعداد وعمل.

وإذا ما تأسّينا بتجربة أسلافنا مع الغزاة الفرنج منذ قرون طويلة، فإن هذا التأسي يقتضي أن يكون رفضنا للوجود الصهيوني في الأرض العربية الإسلامية رفضاً إيجابياً، يقتضي التخطيط والإعداد والعمل، في ضوء واقع العصر الذي نعيش فيه، وظروف هذا العصر ومتطلباته، مع إدراك كل ما يتصل بعصرنا من ظروف وأحوال ووسائل مغايرة لما كان عليه عصر الحروب الصليبية. وفي تجارب الإنسانية القديمة والحديثة ما ينبىء أن الواقع السيء الخاطىء لا يكتب له الدوام، شريطة أن يتنبّه الإنسان له ويعمل بجدّ على إزالته، لأن أحداث هذا الكون تُصنَع على يد الإنسان، بتكليف من خالق الإنسان، الذي ربط تغير أحوال الناس بتغير ما في نفوسهم، ولم يترك أمور الدنيا للمصادفات والخوارق والمعجزات التي لا يد للإنسان فيها.

الحواشي

(١) انظر: Steven Runciman, (A History of the Crusades) Cambridge, 1962, VOL. II, P. 476.

(٢) Ibid, PP. 475-484

(٣) انظر: R C. Smail, (Crusading Warfare), Cambridge 1976, P. 464.

(٤) العماد الأصفهاني، «الفيح القسّي في الفتح القدسي»، تحقيق محمد صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، ص٦٢، ٨٢، وانظر كذلك كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، تحقيق فيليب حتّي، برنستون، ١٩٣٠، ص٥١.

(٥) Crusading Warfare, P. 111.

(٦) Ibid, P. 112.

(٧) Ibid, P 198.

(٨) انظر: بهاء الدين ابن شداد، «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، تحقيق جمال الدين الشيال، ط١، القاهرة ١٩٦٤، ص١٧٩.

(٩) انظر: «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، ص١٧٧-١٧٨.

(١٠) Crusading Warfare. PP. 200, 201

(١١) Ibid, P. 191.

(١٢) Ibid, PP. 115, 201, 202.

(١٣) Ibid, P. 76.

(١٤) Ibid, P. 201.

(١٥) Ibid, PP. 76-78.

(١٦) Ibid, P. 79-82.

(١٧) أبـو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن أبو شامة المقدسي، كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية»، ط دار الجيل، بيروت، ج٢، ص٨٠-٨١.

(١٨) «الفيح القسي»، ص٥٩، وكتاب «الروضتين»، ط دار الجيل، بيروت، ج٢، ص٨٠.

(١٩) انظر: جمال الدين محمد بن سالم بن واصل «مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب»، ج٢، ص١٨٦، ١٨٧.

(٢٠) كتاب «الروضتين» ط دار الجيل، بيروت، ج٢، ص٨٢.

(٢١) انظر: A History of the Crusades, P 490

وانظر كذلك كتاب «الروضتين» ط دار الجيل، بيروت، ج٢، ص٧٦.

(٢٢) A History of the Crusades, P. 455

(٢٣) Crusading Warfare, P 191,

A History of the Crusades, P. 455.

وانظر كذلك: «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، ص٧٦، و«الفيح القسي في الفتح القدسي»، ص٧٦ أيضاً.

(٢٤) انظر «مفرّج الكروب»، ج٢، ص١٩٠. وانظر كذلك

A History of the Crusades, P. 458.

(٢٥) انظر: كتاب «الروضتين»، ط دار الجيل، بيروت، ج٢، ص٧٦، ٧٧، و«الفتح القسّي»، ص٧٠.

(٢٦) انظر: «الروضتين» ط دار الجيل، بيروت، ج٢، ص٧٧، وقد نقل أبو شامة عباراته عن كتاب «البرق الشامي» للعماد الأصفهاني، وهو كتاب لم يتم حتى الآن تحقيق جميع أجزائه وطبعها.

(٢٧) A History of the Crusades, Vol. II, P. 457.

(٢٨) Ibid, P. 458.

(٢٩) Crusading Warfare PP. 155, 195.

(٣٠) انظر: «الفتح القسي»، ص٦٥.

(٣١) A History of the Crusades, P. 489

(٣٢) Ibid, P 490

(٣٣) Ibid, Same page

(٣٤) Ibid, P. 455.

(٣٥) انظر: «الفتح القسي»، ص٧٤، و«مفرّج الكروب»، ص١٨٩.

(٣٦) A History of the Crusades, P. 490.

(٣٧) Ibid, P. 456.

(٣٨) انظر: Crusading Warfare, PP. 191, 193.

(٣٩) انظر: «الفيح القسيّ في الفتح القدسي»، ص٧٦. على أنّ الكونت ريموند كان قد نصح قبل ذلك بالحذر وعدم التعجّل في مصادمة صلاح الدين، كما أورد ذلك العماد الأصفهاني نفسه في موضع سابق من كتابه. انظر: «الفتح القسي»، ص٦٦.

(٤٠) انظر: A History of the Crusades, PP. 455, 487.

(٤١) «مفرّج الكروب»، ج٢، ص١٨٩.

(٤٢) انظر: Crusading Warfare, PP. 195, 196

(٤٣) «مفرّج الكروب»، ج٢، ص١٩٠.

(٤٤) «الفيح القسّي»، ص٧٩.

(٤٥) انظر: «النوادر السلطانية»، ص٧٧، و«مفرّج الكروب»، ج٢، ص١٩٠.

(٤٦) انظر: «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، ص٧٥، وانظر كذلك:

Crusading Warfare, P. 196.

(٤٧) انظر: Crusading Warfare, PP. 197, 198.

(٤٨) A History of the Crusades, PP. 458, 488.

(٤٩) Ibid, P. 458

(٥٠) Ibid, P. 486.

(٥١) «مفرّج الكروب»، ج٢، ص١٩١.

(٥٢) المصدر نفسه، ج٢، ص١٩٢.

(٥٣) انظر: «الفيح القسّي في الفتح القدسي»، ص٨٢ وما بعدها.

(٥٤) «النوادر السلطانية»، ص٧٧. وانظر كذلك: «الفيح القسّي»، ص٨٢.

(٥٥) A History of the Crusades, P. 490.

(٥٦) كتاب «الروضتين» ط دار الجيل، بيروت، ج٢، ص٧٨، نقلا عن كتاب «البرق الشامي» للعماد الأصفهاني.

(٥٧) كتاب «الروضتين» ج٢، ط دار الجيل، بيروت، ص٨٢.

(٥٨) كتاب «الروضتين» ط دار الجيل، بيروت، ج٢، ص٨٢، ٨٧.

(٥٩) A History of the Crusades, Vol II P 459.

(٦٠) Ibid Vol. II, P 459.

وانــظر كذلــك: «النــوادر السلطانية»، ص٧٧، و«مفـرّج الكـروب»، ج٢، ص١٩٢، و«الفيح القسّي»، ص٨٠.

(٦١) انظر: «الفيح القسّي»، ص٨١، وكتاب «الروضتين»، ط دار الجيل، بيروت، ج٢، ص٨٠-٨١، و«النوادر السلطانية»، ص٧٨.

(٦٢) انـظر: كتـاب «الروضتين»، ط دار الجيل، بيروت، ج٢، ص٨٠، و«الفيح القسّي»، ص٨٧.

(٦٣) كتاب «الروضتين»، ط دار الجيل، بيروت، ج٢، ص٧٨، ٨٢.

(٦٤) «مفرّج الكروب»، ج٢، ص١٩٣.

(٦٥) كتـاب «الروضتين»، ط دار الجيل، بيروت، ج٢، ص٧٨، نقلا عن كتاب «البرق الشامي» للعماد الأصفهاني.

(٦٦) A History of the Crusades, Vol. II. P. 460.

(٦٧) كتاب «الروضتين»، ط دار الجيل، بيروت، ج٢، ص٨٦، ٨٧، ٨٨.

(٦٨) المصدر نفسه، ج٢، ص٩١.

(٦٩) المصدر نفسه، ج٢، ص٩٢.

(٧٠) المصدر نفسه، ج٢، ص٩٢.

(٧١) انظر حول هذا الموضوع ما أورده أبو شامة في كتاب «الروضتين»، نشر وتحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، ١٩٥٦، ج١ قسم١ ص١٤.

(٧٢) المصدر نفسه، ج١، قسم١، ص٥.

(٧٣) كتاب «الروضتين»، ط دار الجيل، بيروت، ج١، ص٢٣٣.

(٧٤) انظر: «مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب»، ج٤، ص٢٤١ وما بعدها. وانظر كذلك «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي، ط حيدر أباد، ١٩٥١، ج٨، ص٤٣٢ وما بعدها.

(٧٥) انظر كتاب «الروضتين»، ط دار الجيل، ج١، ص١٦٠.

(٧٦) «النوادر السلطانية»، ص٢٠.

(٧٧) المصدر نفسه، ص٢١.

(٧٨) المصدر نفسه، ص١٩.

(٧٩) المصدر نفسه، ص٢٢ ، ٢٣ .

(٨٠) انظر: «مفرّح الكروب»، ج٢ ، ص٢١١ .

(٨١) انظر: «ديوان المتنبي»، شرح اليازجي ، ط بيروت، ١٩٦٤ ، ج٢ ، ص٣٧٢.

(٨٢) «النوادر السلطانية»، ص١٧ ، ١٨ .

(٨٣) «ديوان المتنبي»، شرح اليازجي ، ط دار صادر، بيروت، ١٩٦٤، ج٢ ، ص٣٦ .

(٨٤) «النوادر السلطانية»، ص٨، ٢٧ ، ٢٩ ، ٢٤٧ .

(٨٥) المصدر نفسه، ص٨: الحاشية ٥ ، وص١٧ : الحاشية ٢ .

(٨٦) المصدر نفسه، ص٢١٦، ٢١٧ .

(٨٧) المصدر نفسه، ص١٩٤ .

(٨٨) سورة الأحزاب، الآية ٢١ .

(٨٩) كتاب «الروضتين»، ط دار الجيل، ج٢ ، ص٨٣، ٨٤، ١٠١ ، ١٠٢ .

(٩٠) المصدر نفسه، ج٢، ص١١٦ .

(٩١) المصدر السابق نفسه، ج٢، ص٨٤.

(٩٢) ديوان فتيان الشاغوري، تحقيق أحمد الجندي، دمشق، ١٩٦٧، ص١٤٠ ، وكتاب «الروضتين» ج٢ ، ص٨٤، ١١٨ ، ١٣٢ .

(٩٣) انظر: «الروضتين»، ط دار الجيل، بيروت، ج٢ ، ص١١٧-١١٨ .

(٩٤) ديوان ابن سناء الملك، تحقيق محمد عبد الحق، ط١ ، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الدكن، الهند، ١٣٩١هـ/١٩٧٢م. ص٨١٣ وما بعدها.

(٩٥) انظر: Cassel's Encyclopaedia of Literature, Vol. I, PP. 196-197. وانظر كذلك: عبد الوهاب عزام، «الشاهنامة»، ط القاهرة، ١٩٣٢، ص٢٤ ، ٢٥ .

(٩٦) سورة محمد، الآية ٧.

(٩٧) سورة الأنفال، الآية ٤٦ .

(٩٨) سورة الصف، الآية ٤ .

(٩٩) ديوان فتيان الشاغوري، ص١٤٠ ، وكتاب «الروضتين»، ط دار الجيل، بيروت، ج٢، ص٨٤، ١١٨ ، ١٣٢ .

(١٠٠) ديوان أبي الحسن الساعاتي، تحقيق أنيس المقدسي، بيروت، ١٩٣٩، ج٢، ص٤٠٦. وانظر كذلك كتاب «الروضتين»، ط دار الجيل، ج٢، ص٨٤.

(١٠١) كتاب «الروضتين»، ط دار الجيل، بيروت، ج٢، ص١٠٤.

(١٠٢) «النوادر السلطانية»، ص٧٥.

(١٠٣) كتاب «الروضتين»، ط دار الجيل، بيروت، ج٢، ص١٠٥.

(١٠٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٨٨.

(١٠٥) المصدر نفسه، ج٢، ص١١٨.

(١٠٦) المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٥.

(١٠٧) المصدر نفسه، ج٢، ص١١٦.

(١٠٨) المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٥.

(١٠٩) المصدر نفسه، ج٢، ص١١٨.

(١١٠) المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٢.

(١١١) المصدر نفسه، ج٢، ص١١٦.

(١١٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٨٥.

(١١٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٢.

(١١٤) ديوان فتيان الشاغوري، ص١٤٠، وكتاب «الروضتين»، ط دار الجيل، بيروت، ج٢، ص٨٤.

(١١٥) A History of the Crusades, Vol. II, PP. 465, 467.

وكذلك Crusading Warfare, P. 51.

(١١٦) انظر: A History of the Crusades, Vol. II, PP. 466, 467, 468.

(١١٧) Ibid, P. 461

(١١٨) Ibid, P. 467.

(١١٩) «النوادر السلطانية»، ص١٩٤.

(١٢٠) Crusading Warfare, P. 53.

(١٢١) انظر: Crusading Warfare, P. 41

(١٢٢) Ibid, PP. 49-50.

(١٢٣) Ibid, P. 150.

(١٢٤) Ibid, P 37.

(١٢٥) Ibid, PP. 55, 56

(١٢٦) «مفرّج الكروب»، ج٢، ص٢١٧ .

(١٢٧) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٢٨ .

(١٢٨) «النوادر السلطانية»، ص١٩٤ .

(١٢٩) انظر مثلا قصيدة ابن منير التي يهاجم فيها مجير الدين صاحب دمشق لتعاونه مع الفرنج، كتاب «الروضتين»، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، ج١، قسم ١، ص١٩٧-١٩٩. وانظر كذلك قصيدة شهاب الدين أبي يوسف، يعقوب بن محمد المجاور، كتاب «الروضتين»، ط دار الجيل، بيروت، ص٢٠٥-٢٠٦، وكتاب «مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب»، ج٤، ص٢٤١-٢٤٦، وكتاب «مرآة الزمان»، ج٢، ص٤٣٢-٤٣٤، وكتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» للمقريزي، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط٢، القاهرة، ١٩٥٧، ج١، قسم٢، ص٣٠٤.

ثبت المصادر والمراجع

مراجع عربية

١ . القرآن الكريم.

٢ . أسامة بن منقذ، كتاب «الاعتبار»، تحقيق فيليب حتّي، برنستون، ١٩٣٠.

٣ . ابن الساعاتي، أبو الحسن علي بن رستم «ديوانه»، تحقيق أنيس المقدسي، ط بيروت، ١٩٣٨، ١٩٣٩.

٤ . سبط ابن الجوزي، «مرآة الزمان»، ط حيدر أباد، ١٩٥١.

٥ . ابن سناء الملك، «ديوانه»، تحقيق محمد عبد الحق، ط١، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الدكن، الهند، ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م.

٦ . أبو شامة، شهاب الدين، أبو محمد عبد الرحمن، أبو شامة المقدسي، كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية»، ط دار الجيل، بيروت. وكتاب «الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية»، نشره وحققه محمد حلمي أحمد، القاهرة، ١٩٥٦.

٧ . ابن شداد، بهاء ابن شداد، «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، تحقيق جمال الدين الشيال، ط القاهرة، ١٩٦٤.

٨ . عبد الوهاب عزام، «الشاهنامة»، ترجمها نثرا إلى العربية، الفتح بن

علي البنداري ، ثم قابل الترجمة العربية بالأصل الفارسي ، وحرّرها مع تصحيحات وإضافات، عبد الوهاب عزام، ط القاهرة، ١٩٣٢م.

٩ . العماد الأصفهاني، «الفيح القسّي في الفتح القدسي»، تحقيق محمد محمود صبح ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

١٠ . فتيان الشاغوري ، ديوانه ، تحقيق أحمد الجندي ، دمشق ، ١٩٦٧ .

١١ . المتنبي ، أبو الطيب، أحمد بن الحسين المتنبي ، «ديوانه»، شرح اليازجي، ط بيروت، ١٩٦٤ .

١٢ . المقريزي ، أحمد بن علي المقريزي ، «السلوك لمعرفة دول الملوك»، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط٢ ، القاهرة، ١٩٥٧ .

١٣ . ابن واصل، جمال الدين ابن محمد بن سالم واصل، «مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب»، ط القاهرة.

مراجع انجليزية

١٤ . Cassel's Encyclopaedia of Literature, ed. S.H. Steinbury, London, 1953.

١٥ .

Runciman, Steven runciman, "A History of the Crusades", Cambridge, 1962.

١٦ . Smail, R.C. Smail "Crusading Warfare", Cambridge, 1976.

المحتوى

الطبعة الأولى
رقم الايداع ١٩٨٧/١٢/٥٨٦
رقم الاجازة المتسلسل ١٩٨٧/١٢/٤٩٥
تاريخ تقديم المخطوطة ١٩٨٧/١٢/١٧

٣٥٥٫٠٢
محمـ محمود إبراهيم
حطين بين اخبار مؤرخيها وشعر معاصريها/
محمود إبراهيم ـ عمان دار البشير للنشر، ١٩٨٧
( ) ص
ر.أ (١٩٨٧/١٢/٥٨٦)
١ ـ الحروب أ ـ العنوان
(تمت الفهرسة بمعرفة مديرية المكتبات والوثائق الوطنية)

هذا الكتاب

إن إسقاط تجارب الماضي على مشكلات الحاضر، هي خير ما يقدمه المؤلف في دراسته إذ لا بد من وجود عناصر الجدة وعمق التفكير، إما استيفاءً لناقص، أو استيعاباً لمتفرق، بالمعنى الكلي للكشف والاستيفاء والاستيعاب.

إن دراسة جدية كهذه لمعركة حطين، تربط الجانب التاريخي بالجانب الأدبي لجديرة بالنشر، لاسيّما أن ما يقدّم لنا إنّما يُقدّم من رجل يعمل بصمت في خضم متاهات العصر.

وقد ركز الأستاذ المؤلف في كتابه هذا على جانبين :ـ

أولهما: الجانب التاريخي :ـ

★ فقد بين الكتاب أسماء أمهات الكتب العربية والأجنبية التي احتوت معلومات أصلية عن معركة حطين وما تلاها من أحداث.

★ وأجرى مقارنة بين المعسكرين المتصارعين تبين ميزان القوى في المفهوم العسكري.

★ وقدم بياناً عن الأحداث والتحركات التي سبقت المعركة مباشرة لدى المعسكرين.

★ وقدم ملخصاً عن سير المعركة وتطورات مراحلها وما كان لها من نتائج.

ثانيهما: الجانب الأدبي :ـ

★ وقد بين فيه دور الشعر المعاصر للمعركة في مواكبة الأحداث ورصدها وتصوير أصدائها، ثم ذكر تطلعات الشعراء وآمالهم في إزالة وجود الأجنبي بصورة نهائية.

وكانت نتائج البحث :ـ

★ تسليط الأضواء على زوايا معينة هي :ـ

١ ـ علاقة المسلمين مع غيرهم من المواطنين غير المسلمين.

٢ ـ معالم النظرة الاستعمارية الطائفية قديماً وحديثاً.

٣ ـ دلالات الوجود السكاني الاستيطاني للفرنج في الأرض العربية، ومقابلته بالوجود الاستيطاني الصهيوني في أرض فلسطين.

٤ ـ ماهية الموقف الإسلامي من هذا الوجود زمن صلاح الدين الأيوبي، وما ينبغي أن يكون عليه موقفنا من الوجود الصهيوني القائم في الأرض العربية.

رضوان دعبول

الشركة الدولية للطباعة والنشر